دروس تربوية

من حديث الذكر ما قبل النّوم

أ.أناهيد السّميري

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السّميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصّالح.

– هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

– الكمال لله –عزّ وجلّ– فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى

اللّقاء الأوّل

بسم الله الرّحمن الرّحيم

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الشّهري الّذي يختص بالكلام حول الدّروس التّربويّة من الأحاديث النّبويّة، وقد اجتمعنا في الدّرس الماضي وكان موضوعنا هو الكلام عن حديث: (**احفظ الله يحفظك**) واليوم نناقش حديث: (**البراء ابن عازب**) رضي الله عنه، وهو حديث النّوم، وهذا يجعلنا نناقش مسألة في غاية الأهمية وهي مسألة (**التّربية بالنّصوص**) لأنّ القوم اليوم في مسألة تربية الأبناء شرّقوا وغرّبوا واستوردوا وأخذوا، وحالنّا فيما يحصل في التّربية كحال **شخص بصير –يرى– يقوده أعمى، فهذه الصّورة الحقيقيّة لما يحصل اليوم من استيراد النّظريات التّربويّة.**

ومن (**التّربية بالنّصوص**) ما سنراه في حديث البراء ابن عازب في أذكار النّوم كيف أنّ النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– علّمه كلمات بها:

- يستقيم حال الإنسان في عقيدته.
- ويَكسب خيرًا في دينه ويكسب خيرًا في دنياه.
- وترتاح نفسه في النّوم.

وسيكون من ضمن كلامنا ما نجده اليوم عند أبنائنا من المخاوف الشّديدة خصوصًا **المخاوف عند النّوم** وكيف تأتي الأذكار الشّرعيّة سببًا من أسباب النّوم الجيّد الهادئ الّذي يستودع فيه الإنسان نفسه عند ربّه.

لكن قبل أن ندخل في التّفاصيل نريد أن نعيد على أنفسنا الكلام عن أهميّة (**التّربية بالنّصوص**).

- ماذا نقصد بهذه الجملة؟
- وما حقيقتها (في الواقع ماذا نفعل)؟
- وما هو الموجود الآن في الواقع بدلًا عنها؟

أوّلًا: كلمة (**التّربية بالنّصوص**) نقصد بها أن نوجّه مَن نربّي للصّواب ونقيّم لهم الأحوال –هذا مقبول وهذا غير مقبول– وحين ننتقد الأخطاء يكون هذا النّقد مبنيّ على دليل، مبنيّ على نصّ. وليس على الأراء وعلى أذواق النّاس **إنّما** على: قال الله، قال رسوله، قال الصّحابة أولوا العرفان.

لكن، ما الّذي ينقصنا لكي نصل إلى هذا، ونحن عندنا الكثير من الحفظة لكتاب الله، والكثير من قارئي سنّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ ينقصنا أن نعرف كيف ننظر إلى النّص ونستفيد منه الدّروس التّربويّة وأجعله أمام عيني يرشدني كيف أربّي أبنائي.

إنّ موضوع التّربية من المواضيع المهمة والسّبب الرّئيسيّ: قوّة مشاعر الآباء تجاه أبنائهم وحُبّ الصّــلاح لهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى الأخطار الّتي نعيشها، الفتن الّتي نعيشها.

أمّا أهميّة التّربية، فكلّنا يشعر بأهميّة التّربية، لكن هذا لا يعني أن نستورد أفكارًا ولا توجيهات ولا تقييمات، ولا معرفة للصّواب والخطأ على آراء النّاس؛ لأنّ مَن فعل هذا واستورد من أهل الكفر: (كيف يُربّي النّفوس الّتي خلقها الله) يكون كشخص بصير عنده عينين يرى بهما ومع ذلك يترك القيادة لشخص أعمى!

فإنّ من عرف الله وعرف دين الله ورسوله وعرف شريعته لا يصلح أبدًا أن يقبل من غيرهم دلالة على الطّريق؛ إذًا كلّ مرّة سأستحسن تصرّفًا أو أنتقده، لا بدّ أن أكون بنفسي مستحضرة للدّليل متصوّرة من أين أتيت بقبول هذا ورفض هذا.

فالّذي يربّي بالنّصوص يحتاج إلى عدّة أمور من جهة المربّي:

الأمر الأوّل: الثّقة المطلقة بمصدر التّربية: الثّقة التّامة أنّ كلّ أمر تريدين أن تربّي عليه أبناءك ستجدين الإرشاد فيه موجود بالكتاب والسّنة، اعلمي أنّنا عندما نربّي بكلام الله وكلام رسوله سنجد نفوسًا سوّية ومجتمعًا جيّدًا.

الأمر الثّاني: فهم النّصوص: يعرف قال الله، قال رسوله قال الصّحابة أولوا العرفان، معرفة عميقة وليست سطحيّة لأنّ النّصوص محفوظة، لكن كيف أعايشها بالتّربية هذا الفارق، والّذي يفهمها لا بدّ أن يكون في قلبه الثّقة التّامة أنّه سيجد مبتغاه في الكتاب والسّنة.

الأمر الثّالث: كثرة مراجعة النّصوص واستحضارها في المواقف: من فضل الله علينا أنّه يأجرنا ونحن نقرأ كتابه الحرف بعشر حسنات إلى مضاعفات عظيمة، إشارة إلى أنّ كثرة قراءة هذا الكتاب وراؤه الأجور العظيمة.

كثرة قراءة هذا الكتاب معناه: بقاء النّصوص مستحضرة في الذّهن، قد يكون الإنسان عنده محفوظات كثيرة، ومعلومات كثيرة لكن يغفل عنها، (فالّذي تعلمه، لا بدّ أن تستحضره).

قد نحفظ النّصوص، لكن قدرتنا على استحضارها في المواقف تكون ضعيفة، قد تتعرّضين لموقف مثلًا تجدين ابنك يتناول طعامًا يحبّه جدًّا، ويرى طفلًا ينظر إليه. من التّربية بالنّصوص أن أتذكّر آية سورة الإنسان وأقول له: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}[1] ما كنت أحتاج إلّا أن أذكر الآية، لأذكّره بأنّ هؤلاء الأفاضل الأبرار يطعمون الطّعام، لكن هل يطعمون أيّ طعام؟ لا، إنّما {عَلَى حُبِّهِ} وهو الآن يصارع ما يحبّه، فالاستحضار شيء مهم، ونحن نتعرّض لمواقف كثيرة، فلو ذكرت له آيه سينفعل معها أو ذكرت له حديثًا سينفعل معه، لكن نحن نكون غير مستحضرين للنّصوص فتفوتنا الفرص.

الأمر الرّابع: تحليل المواقف على حقيقتها: الموقف الّذي يحصل أمامي لا بدّ من تحليله على حقيقته، تصوّري أنت وابنك في الحرم في المطاف، ومدّ أحد النّاس لكم يده بتمرة، أنتِ أخذتِ وهو قال: لا.

حينها تحتاجين أن تتأمّلي بوجهه جيّدًا لتعرفي لماذا رفض؟ ثمّ نحلّل بعقلنا ونسأله: لماذا ردّدت التّمرة؟

- من الممكن أن يكون جوابه: لا أدري.
- ومن الممكن أن يكون جوابه: لأنّي لست محتاج.
- ومن الممكن أن يكون جوابه: لأنّي أشمئز من يدّ أيّ أحد.

حينها تقولين له: انتبه لا تكن متكبرًّا أو بَطِرًا أو تردّ مسلمًا. فتبقي تحلّلين الموقف وتوجّهينه.

الأمر الخامس: المناقشة والحوار: إنّ المناقشة تحتاج أن أفهم النّصوص جيدًا، وأستحضرها جيدًا، ثمّ أحلل الموقف الّذي أمامي جيّدًا ثمّ أناقشه ولا أتسرّع في الحكم!

ربّما هو ليس متكبر، ربّما يحتاج أن أنبّهه فقط، أقول له: هناك بعض النّاس يردّ تكبرًّا؛ يرى أنّه ليس محتاج لأحد وكلّنا فقراء لله، والأفضل أن تأخذها جبرًا لخاطره أو أن تأخذها وتتصدّق بها.

(١) سورة الإنسان: ٨.

المقصد في المثال أن نحلّل المواقف ثمّ نناقشها ثمّ نذكر الدّليل، مثلًا عندما نقول له:

- بعض النّاس يتكبّر على المسلمين، نستدلّ على كلامنا مثلًا بحديث: النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كان فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)[١] ومثقال ذرّة من كبر في القلب، شيء لا يشعر به الإنسان.

- وحين نناقشه في مسألة التّقذّذ من المسلمين، نكلّمه عن وسواس الشّيطان، ونذكر له أنّ سؤر[٢] المسلم طاهر، فلو شرب مسلم من كأس، يمكنك أن تشرب ورائه؛ فلا تتقذّذ من المسلمين، وأنت لا تدري من يكون هذا الّذي تتقذّذ منه عند الله!

- وفي مسأله جبر خاطر المسلم نقول له: قال رسول الله: (وأحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ -عزّ وجلّ- سرورٌ يُدخلُه على مسلمٍ)[٣].

إذًا عليك أن تحلّل المواقف ثمّ تستشهد بالنّصوص، ليس ظنًّا ولا اتّهامًا إنّما تضع كلّ الاحتمالات في الخير والشّر.

وعليك وأنت تربّي بالنّصوص أن تثق تمامًا أنّ التّربية بكلام الله وكلام رسوله تأتي بنتائج.

والقاعدة لكي أصل إلى كلّ ذلك: الاستعانة بالله واستهدائه: هذه هي العبادة المطلقة الدّائمة الّتي لاننقطع عنها، عبادة الاستعانة بالله واستهدائه وسؤاله عزّ وجلّ: اللّهم اهدني وسدّدني! وطلب العون منه على تربية سليمة، فعليك أن تستغيثي بالله وأنت في الموقف الّذي تريدين أن توجّهيه فيه؛ لكي يُجري الله على لسانك ما ينفع ولدك، وهذه المسألة على الحقيقة إذا اعتاد عليها الإنسان، يرى أنّ كلّ شيء من آثار عطية الله له؛ لأنّه لا يوجد استحضار ولا فهم إلّا بتوفيق من الله.

معنى هذا أنّنا نريد أن نعيد على أنفسنا دائمًا مسألة الاهتمام بالنّصوص وعدم استبعادها في مسائل التّربية وهنا ونحن نناقش حديث دعاء النّوم المشهور نريد أن يحصل عندنا حالة من **الاستبدال** لكثير من المفاهيم الّتي دخلت علينا لا ندري من أين! مثلًا من المفاهيم المتّصلة بالنّوم: قصّة ما قبل النّوم! من أين أتت هذه الثّقافة؟ عندما تراجعون كلام الله وكلام رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- تجدون قبل النّوم **حالة من الحالات الّتي يجب أن يراجع العبد فيها عقيدته، دينه، إيمانه، لجوؤه إلى ربّه.**

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

(٢) السّؤر: هو البقيّة من كلّ شيء.

(٣) صحّحه الألبانيّ.

والبراء ابن عازب –رضي الله عنه– عُلِّمَ هذا الكلام وهو شابّ صغير، معنى ذلك أنّ هذا دين يجب أن يحيوا عليه، ويروه منهجًا لا يتركوه، خصوصًا ونحن كلّ يوم نرى من أبنائنا زيادة في الخوف، فوقت النّوم من الأوقات الحرجة جدًا عند غالب الأهالي والسّبب:

- إحساس الصّغار أنّهم يأتيهم ما يؤذيهم في نومهم.
- أو يأتيهم من وساوس الشّيطان ما يخيفهم.
- أو يكونون قد رأوا ما رأوا في نهارهم فينعكس عليهم في نومهم فيجدوا أثر هذا عند النّوم.
- أو نكون نحن نخيفهم طوال النّهار لكي ينتهوا عن أشياء؛ فتأتي آثار ذلك عند النّوم.

معنى ذلك أنّنا نجد مع النّوم ثقافة ليست من ديننا، ونجد مخاوف لا نعرف كيف نتعامل معها! وكأنّنا ننسى أنّ الإنسان في نومه يستحضر آخر أشيائه الّتي كان عليها فإذا كان على الإيمان والسّنة، كان أثر ذلك في نومه.

فالمقصود أنّنا كلّما فهمنا النّصوص كلّما استغنينا عن غيرها والاستغناء بالشّريعة والنّصوص هذا **دين** ندين الله به، وعندما نلقى ربّنا نقول له: نحن رضينا بالإسلام دينًا واعتقدنا أنّ ديننا كامل، ولم نأخذ من كلّ مذاهب الحياة إلّا دينك يا ربّنا.

فهل هذا صحيح؟ هل رضينا حقًا بدين الله وأصبح هو الّذي يصلح حياتنا في كلّ جهة؟!

ولذا عندما نناقش المسألة من هذه الجهة نرى التّقصير حاصل؛ لأنّنا في كلّ مناحي الحياة لا بدّ أن يكون معنا دليل ونصّ يرشدنا. ونحن نعتقد أن كلّ الحياة فيها نصوص بدليل قوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}[١] لا يمكن أن أعتقد أن الله يُرتّب الفلاح على التّزكية ولا يُرشدني كيف تكون التّزكية! إذًا سنغلق آذاننا وأعيننا عن الشّرق والغرب؛ لأن الّذي خلق النّفس هو أعلم بما يزكّيها، فلن نسمع كلام أيّ أحد في التّربية. وإذا قيل لنا: لكن هذا انغلاق والحكمة ضالّة المؤمن.

نقول: بداية، أخرجوا كلّ ما يتّصل بإعمار الدّنيا مثل صناعة سيارة، كمبيوتر. مثل هذا يمكنك أن تستفيد منه. هذا ليس موضوعنا، موضوعنا فقط ما تصلح به النّفوس، فالّذي خلق النّفس أنزل كتابًا وأرسل رسولًا من أجل إصلاح هذه النّفس، فمن الآية السّابقة نعتقد أنّ الله أرشدنا كيف نزكّيها. معنى ذلك أنّ بين يدينا الثّروة الّتي يحصل بها الصّلاح، يأتي أحد يقول: الحكمة ضالّة المؤمن. نقول له: نعم، صحيح أنّ الحكمة ضالّة المؤمن لكن حين تضلّ عنك الحكمة! عندما لا

(١) سورة الشّمس: ٧-٩.

تجدها ابحث عنها بعيدًا عن الكتاب! لكنّك لم تبحث في الكتاب ولا في السّنة ولم ترَ هؤلاء العظماء أمثال: ابن عمر وابن عباس والبراء ابن عازب وغيرهم ثمّ بقية السّلف الصّالح جميعًا كيف تربّوا، كلّ هؤلاء كانوا صغارًا وتربّوا من كلام الله وكلام رسوله واستغنوا بالكتاب والسّنة. فهذه عبادة عظيمة، ويمكنكم أن تتصوّروا إنسانًا أمامه ثروة عظيمة وهو غير منتبه لها، فهو طوال الوقت ينظر يمينًا ويسارًا. فتقول له: ماذا فقدت؟ بدلًا من أن تبحث يمينًا ويسارًا ما كنت تحتاجه بين يديك! لا تبحث عنه، لا تذهب تترجم كلام من يسمّونهم "علماء" وتتحمّل المشاقّ لنقل فلسفتهم وكان يمكنك في هذا الوقت أن تنكبّ على كتاب الله وسنّة رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- وتفهم منها وتصل سريعًا، واعلم أنّ لكلام الله وكلام رسوله من البركة في التّربية ما يشعر به من ذاقه، مثلًا يكون عند الطّفل إشكالات فيسأل: من خلق الله؟ فتجيبيه من خلال النّصوص:

- الله هو الأوّل الّذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الّذي ليس بعده شيء.
- {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ} ثمّ تشرحين له، لا تنسي المناقشات البسيطة ويسألك وأنت تعيدين ويسألك وأنت تعيدين إلى أن ينقطع عنه وسواس الشّيطان هذا خير من أيّ فلسفة ندخل بها لأنّ هذا الكلام "كلام الله" ولنعلم أنّ كلام الله وكلام رسوله له من البركة ما له.

إذًا نحن نحتاج للتّعبد لله بمشاعر الاكتفاء والاستغناء عن أيّ نظريّات وأيّ كلام نسمعه من هنا وهناك.

كيف أصل للاستغناء؟

أصل للاستغناء عن طريق الثّقة بكلام الله وكلام رسوله وفهمهما ثمّ تستحضرينهما وهذه عملية سهلة إن كنت ممن له ورد ثابت في كتاب الله وسنّة نبيّه -صلّى الله عليه وسلّم- ثمّ تفهمين المواقف الّتي يمرّ بها المتربّي ثمّ ادخلي معه بنقاش إلى أن تصلي للدّليل وقاعدة كلّ هذا أن نكون مستعينين بالله -عزّ وجلّ- الله -عزّ وجلّ- يوفّقنا للوصول إلى الجواب المناسب والتّحليل المناسب والفهم المناسب.

واعلمي أنّ صغارنا ما أن يسمعوا كلام الله وكلام رسوله إلّا ويقع هذا الكلام في نفوسهم لأنّه يوافق الفطرة الّتي فطر الله -عزّ وجلّ- عليها الخلق، فلا تجعلي الأوامر والنّواهي والمناقشات بعيدة عن "قال الله وقال رسوله".

أهمية ذكر الدّليل في التّربية:

أذكر لكم أمر، ربّما كثير منكم تربّى عليه ثمّ غاب عنه، **وهو مسألة موجودة في السّنة**، لكن بسبب عدم ذكر الدّليل من السّنة غابت عنّا في التّربية.

كان آباؤنا يمنعوننا من الانفلات وقت المغرب؛ لأنّهم يجهلون الدّليل أو ألأسباب أخرى، لم يذكروا لنا الدّليل وحين كبرنا ظنّنا أنّ منعهم لنا من الخروج من المنزل وقت المغرب، كان مجرّد عادات وربّما كنّا نتطاول ونقول: خرافات! ثمّ لما كبرنا وعرفنا أنّه يوجد نصّ صحيح من كلام النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أخبر فيه أنّ هذا وقت انفلات الشّياطين.

ما الفرق الآن بين أن تأمرهم وليس معك دليل وأن تأمرهم ومعك دليل؟!

الفرق أنّ وجود الدّليل عند النّفوس الباقية على الفطرة يجعل الأمر عظيمًا بخلاف إذا أتى الأمر من جِهَتنا.

إذًا نحن بحاجة لأن نسير سيرًا دقيقًا مع أبنائنا حتى نصل إلى أن تنفعهم التّربية بالنّصوص.

سنذكر ثلاث خطوات لنحقق الانتفاع من التّربية بالنّصوص من جهة المتربّين، ثم سيكون نموذجنا: "حديث البراء"

الخطوة الأولى: الحفاظ على فطرتهم:

إنّ فطرتهم موهوبة من الله ويستطيعون بها أن يستحسنوا الحسن ويستقبحوا القبيح.

كيف تفسد فطر أبناءنا؟

كلّما زادت الصّور الباطلة الّتي تدخل إلى قلوبهم كلّما انقلبت فطرهم.

سنتناول مثالًا واحدًا في قلب الفطرة، ونرى ما هو دورنا في المحافظة على الفطرة:

سنتكلّم عن المراهقين والمراهقات كيف يكون تفكيرهم حين يتابعون هذه المسلسلات وتنقلب عندهم الفطرة!

جميعنا نتّفق على أنّ السّارق مجرم، وجميعنا نتّفق على أنّ أيّ علاقات محرّمة تتّصل بالعرض تعتبر نوعًا من أنواع الجريمة سواء من الرّجل أو المرأة.

الآن الشّاب أو الشّابة ينظرون لأحد المسلسلات فيعرض عليهم مشهد فيه السّارق يهرب والشّرطة تلاحقه، اسأليه: أين هي مشاعره مع الشّرطة أم مع السّارق؟ غالبًا مع السّارق!!

مشهد ثانٍ: بنت تهرب من أهلها لتلقى حبيبها، ما هي مشاعر الفتى أو الفتاة تجاه الأب الّذي يبحث عنها، يتمنّى أن لا يجدها! انقلبت الفطرة!

هذا الشّاهد واضح أيضًا عند الكبار، وهو مؤشّر تامّ الوضوح في أنّ مفهوم "الحسن والقبيح" **مقلوب** وفي المقابل، لو كان هؤلاء أبناؤنا أو بناتنا –نسأل الله أن يحفظ أولادنا وأولاد المسلمين– لكنّا فقدنا عقولنا! لكن انقلبت الفطرة!

فنحن الآن أمام مشكلة كبيرة متصورين أنّهم فقط يشاهدون التّلفاز وما هي إلّا خرافات، نقول لأنفسنا ذلك! والحقيقة أنّ هذا انقلاب فطريّ وله أبعاده، ولا يشعر به إلّا من تناقش معهم، ما الهدف من لعبة فيديو يشاهدون فيها الوحوش تحكم العالم؟ ترسيخ للشّر في نفوسهم، بدلًا من أن يحكم الخير العالم؛ فيأتي طفل صغير يقول: أتمنّى أن أكون قنبلة أنفجر! من أين أتى الشّر؟ انقلبت الفطرة.

فحين نتناول أوّل خطوات التّربية بالنّصوص، لا بدّ من معرفة أنّ فطرتهم أمانة عندنا، إنّهم أتوا من عند ربّ العالمين يستحسنون الحسن ويستقبحون القبيح.

وانظر لطفل صغير بدأ يمشي على قدميه، ويأتي أحد يُمثّل أنّه يهجم على أمّه، هل يسكت؟ يبكي، فطرته تقول إنّ الاعتداء على أمّه شرّ، هؤلاء الأطفال أنفسهم الّذين كانوا صغارًا على فطرتهم ولا يحبّون أن يمسّ أحد أحبابهم وأقربائهم بسوء، ممكن مع هذه الأفكار الإرهابيّة أن يقتلوا أخصّ النّاس لهم مع المخدّرات! انقلبت الفطرة.

وأسوأ من هذا كلّه أنّ فطرتهم المعترفة بالله ربًّا، الّتي ترى آثار كماله، الّتي تقول: ما خلق هذه الأشياء العظيمة إلّا عظيم، وما أوجدني إلّا عظيم وبمجرّد أن ترشديهم، مباشرة فطرتهم تقبل.

أعظم من كلّ المشاكل الّتي سمعناها مشكلة أن يأتِي أحد يقول: الله غير موجود! مصيبة عظيمة! أفي الله شك؟!

إذًا حتى أربّي على النّصوص يجب أن أحافظ على فطرة الأبناء، وهذه مسؤوليّة الآباء، أمّا عن شعورنا أنّه لا أخطار ممّا يرونه على شاشات التّلفاز، ونحن نظرنا للتّلفاز قبلهم وصَلُحنا، فهذا أمر غير صحيح، بل هو درب من الخيال!

إنّ الّذي كنّا نراه قبل عشرين سنة أو أقل لا شيء مقارنة بما يرونه الآن، ثمّ إنّ آباءنا وأمّهاتنا كان غرس العقيدة عندهم من الأشياء المهمّة، فنحن ما فتحنا أعيننا وتلقّينا العقيدة الصّحيحة من الهواء! بل كان هناك من يربّينا، لم يكن عند آبائنا بطاقات صرّاف لنعتقد أنّ الصّراف هو من يرزقنا! ولا كان عند آبائنا وأمّهاتنا ماء صحّي، بحيث إذا عطشنا لا نخاف ولا

نقول: يا ربّ! بل كان آباؤنا وأمّهاتنا يحصلون على الماء الصّافي بكلّ صعوبة، فكان مطعمهم ومشربهم معتمدًا على **الاستغاثة بالله**، كان المطر عندهم يعني الدّعاء.

لكن اليوم النّاس يشعرون أنّهم **مستغنون عن الله!** فهذه الأجيال فتحت أعينها لتجد النّاس حين يريدون المال يذهبون للصّراف وحين يريدون الطّعام يذهبون للمطاعم وحين يريدون الفاكهة يذهبون للبقّالات...يجدون ما يريدون!

وبالتّالي صارت هذه هي المراكز للإحتياجات، وفي أنفسهم أنّ هذه هي الّتي تعطيهم ولا يوجد أحد يقول لهم: هذه نعمة الله وعطيّة الله، ورزق الله -إلّا من رحم ربّي- الاستثناءات موجودة في كلّ مكان، لكنّنا نتناول الحديث عن الوضع العام.

لمّا فتحوا أعينهم ورأوا أنّ بطاقات الصّراف هي المعطية وأنّ الطّعام من هنا والشّراب من هناك والفاكهة من هنا ظنّوا أنّ هذه الأشياء تفيدهم، فانخلعت من قلوبهم **قوّة الإيمان**.

ويزيد على هذا بلاءً: "البطر" يضاعف المسألة علينا أنّهم لا يشعرون بنعمة الله، تأتي لأحدهم تقولي له: احمد ربّك على ما أنت فيه. يقول: أحمده على ماذا؟

ثمّ يخرجون بشعارات خطيرة يقولون لنا: أنتم مضحوك عليكم، أو مُخدّرون. يقصد أنّك حين تذكّرينهم بالنّعم كأنّك تخدّرينهم! وكأنّهم عُمي ولم يسمعوا من حولنا ماذا حصل لهم! وكأنّهم لم يروا مشاهد قتال ولا مشاهد أناس تشرّدوا، وكأنّهم لم يروا شيئًا!

فهذا البطر زاد المسألة بلاء وأصبحت فطرهم لا تستطيع أن توازن بين الخير والشّر، أصبحوا يتمنّون الشّر لأهل بلادهم وأن تنقلب الدّنيا عليهم، وما علموا أنّهم أوّل من يتضرّر!

أيّ عقل سليم يقول إنّه لو نزل ضرر، سينزل عليك أنت أوّل شخص، كيف سيأتيك الاستثناء دونًا عن النّاس؟! لكن الفطر حدث فيها خراب.

فالمطلوب أوّلًا: المحافظة على هذه الفطرة قدر المستطاع ومعنى "قدر المستطاع": أيّ لا بدّ أن لا يدخل له صور عديدة بها الباطل، تصوّري هو يقلّب في جوّاله وألعابه ويرى صور مشينة أو فيها قتل، كلّ هذا يهوّن الأمر له، كحال طفل عمره خمس سنوات يأتي أمامه مقطع فيه قطار دهس أحد، فيقول الطّفل: عادي عادي! مع أنّ الفطر السّوية تقول إنّ مثل هذه المناظر تؤذي من يراها.

فذهاب الفطرة يجعل الحسن ليس حسن، والقبيح ليس قبيح! ومن ثمّ حين نبني على شخص مثل هذا كأنّنا نبني على هواء!

فلا بدّ أن نبدأ أوّلًا بالمحافظة على الفطرة الّتي هي هبة وهبها الله لكلّ إنسان وبها يستطيع تمييز الحسن والقبيح، ولا تنتكس الفطرة إلّا حينما يغيّرها المجتمع.

طرق المحافظة على الفطرة:

١- تقليل كميّة المرئيات الّتي تدخل إلى عينه، وإلى قلبه، تُخَفّض بقدر المُستطاع.

٢- تذكيره بالحسن والقبيح.

للأسف صرنا مضطرين أن نذكر لهم الحسن والقبيح مع إنّه بفطرته يعرف الحسن والقبيح، لكن من باب تنمية فطرتهم من جديد والمحافظة عليها.

الخطوة الثّانية: كثرة الاتّصال الكلاميّ بين الوالدين وبين أبنائهم:

من الأشياء الملاحظة اليوم أنّ العائلات صارت مبنيّة على قاعدة (الصّمت) ولغة الإشارة! لأني إمّا أن أتكلّم في الجوّال أو أكتب في الجوّال، أو أقرأ وأتابع في الجوّال، فأصبحت أخاطب طفلي بلغة الإشارة أنا أخاطبه بلغة الإشارة وهو أيضًا يخاطبني بها لأنّ القوم فقدوا كلامهم!!

من جهة أخرى -وهذا مناسب للحديث الّذي سنتناوله- الرّعب والتّخويف والصّوت العالي والصّراخ حتى تُحلّ المشكلات سريعًا، نصرخ بالتّالي هو يخاف ثمّ ينفّذ!

وليُعلم أن قومًا ماتوا بالصّيحة -عقابًا من الله- وحين تقوم القيامة تأتِي نفخة الفزع يعني سيموتون بالصّيحة، فالصّوت العالي، أحد أسباب دخول الرّعب والخوف والوسواس، ومع ذلك أصبح عاملًا سهلًا عند كثير من الأمّهات، يستعملنَ أصواتهنّ ليعالجنَ الكثير من المشكلات! وكلّنا نعاني من هذه المشكلة لكنّنا نحتاج أن نستعين ليعيننا ربّنا ويعطينا القوّة والقدرة على بقاء الكلام كوسيلة للاتّصال. والمقصد: المحافظة على الاتّصال بكلّ أنواعه وأهم أنواعه: الكلام، أن يكون بيني وبينه لغة نتكلّم بها؛ لأنّي كلّما تكلّمت كلّما استطعت أن أضع دليلًا هنا وأضع نصًّا هنا وأشير إلى إشارة هنا، والكلام هو الّذي يأتي بهذه الفرص.

الخطوة الثّالثة: تعديل التّفكير:

نحن ماذا نحتاج مع الطّفل؟ نحتاج أن ينظر للأمور بصورة صحيحة، وقد تكرّر في كتاب الله قوله تعالى: {أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ}[١] فتكرّر الكلام عن التّفكير والعقل. إذًا ماذا أحتاج مع الصّغير؟ أن أُعَلّمه من خلال النّصوص كيف ينظر للأمور على حقيقتها.

مثلًا: يأتي من كلام النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- حديث يصف حقيقة مسألة، فأنقله له ليُفكّر بنفس الطّريقة، يسأل النّبيّ عائشة -رضي الله عنها- عن شاة ذبحوها: ماذا بقي منها؟ فتقول رضي الله عنها: ذهبت كلّها إلّا كتفها. فيُعدّل لها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- الأمر فيقول: (بَقِيَ كلُّها غيرُ كَتِفِها)[٢].

هذا التّعديل في التّفكير يعني: الّذي تنفقه هو الّذي يبقى لك، والذي تأكله "ستطرده لاحقًا" وينتهي هنا.

إذا تمّ التّعديل في التّفكير، تجده يرى العطيّة خير من الحبس، يرى الإحسان للنّاس خير من الإساءة لهم وتصبح سعادته في اتّباع النّصوص والائتمار بالأمر، وإنجازه أنّه اليوم كان عنده اختبار وما غشّ، أنّه أدّى الأمانة، إنجازه أنّه تحلّى بالقيم العليا.

إذًا معنى ذلك أنّنا سنبقى نحافظ على فطرته ونكلّمه، ولا توجد أداة بيننا وبينه قويّة مثل الكلام، وهذا الكلام إذا كان قويًّا فسيصل إلى الأعماق.

(فطرة سوية +كلام الله +كلام رسوله +كلام الصّحابة) = انتهاء المعادلة بالنّجاح.

لأنّه صاحب فطرة سويّة وأنا أبذل جهدي في المحافظة عليها، ثمّ أقول له كلام ربّنا بعد أن أحلّل المواقف جيّدًا وأضع الكلام في المكان المناسب، وأتناقش معه إلى أن يتعدّل تفكيره.

مثلًا هو يُتعبني في الصّلاة جدًا وأنهى دراسته في الصّف السّادس، ثمّ انتقل إلى الصّف الأول المتوسط -مدرسة جديدة- ورأى زملاء جدد في المدرسة، ثمّ قال: لن أجلس معهم. والسّبب؟ يقول: تخيّلي لا يصلّون! فلا يجب أن أتهكّم عليه وأقول له: ما شاء الله عليك، أنت من تحافظ على الصّلاة!

---

(١) سورة الأنعام: ٥٠.

(٢) أخرجه التّرمذيّ (٢٤٧٠).

إذًا هو يتعبني في الصّلاة لكن تفكيره يقول: أيّ أحد لا يصلّي يعتبر عاصيًا. إذًا هو تفكيره صواب حتى لو كان فيه تقصير، ويجب أن يُلاحظ في هذه المراحل أنّ تعديل التّفكير مطلب أسبق من تعديل السّلوك.

إذًا مثل هذا يعرف يفكّر، مثل هذا لا يأتِي أحد يخطفه؛ لأنّه يعرف كيف يفكّر، لكن نحن ماذا نفعل؟ نهتمّ فقط بالصّورة الخارجيّة كيف هي، وليس من اهتمامنا: كيف يفكر؟

تأكّدي أنّه مثلما أنّك تحلّلين المسائل، كذلك بالضّبط هو أيضًا يحلّل المسائل.

فعليكِ حين يأتي وقت الصّلاة العظيم أن تقولي له: هذا وقت فاضل، انتبه الشّيطان يخطفك ويؤخّرك ويكسّلك؛ لأنّه عدوّك.

وحين يتنازع مع إخوانه، تقولين له: انتبه الشّيطان يحرّش بينكم.

بعد ذلك ستجدينه إذا ذهب إلى المدرسة ورأى أصحابه يتنازعون، سيقول لهم: انتبهوا الشّيطان يحرّش بينكم.

المقصد الآن أنّ المطلوب منّا: تعديـــل التّفـكير.

ملخّص ما ذكرنا:

- نحن نحتاج أن نعبد الله بعبادة الاستغناء بكتابه وسنّة نبيّه -صلّى الله عليه وسلّم- عن كلّ فكر.
- نريد أن نكون من القوم المؤمنين بقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}[1] الّذي يؤمن بهذا ويقول: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا ، وبمحمد -صلّى الله عليه وسلّم- نبيًّا ورسولًا؛ يعرف أنّ تزكية النّفوس والوصول إلى صلاح الأفراد والأسر والمجتمع لا يمكن أن يكون إلّا من الكتاب والسّنة ولا بدّ أن نكرّر على أنفسنا أنّ استيراد الأفكار من الشّرق والغرب الّذين وصفهم الله في كتابه بأنّهم: "عُمي" يعني أنّ البصير الّذي معه نور سلّم قيادته للأعمى! وهذا لا يقبل به عقل ولا تسمح به فطرة سويّة فعلينا أن نكتفي فقط: بقال الله وقال رسوله.

والأسوأ من استيراد النّظريات التّربويّة فقط، أنّ يطوّعوا النّصوص الشّرعيّة بما يناسب نظريّاتهم التّربويّة، فيقولوا: النّظريّة تقول كذا، والله يقول كذا! وهذا ليّ لعُنق النّصوص، فهكذا عاش النّاس وسلّموا عقولهم، وهكذا دخلت الفلسفة علينا،

(١) سورة المائدة: ٣.

وأصبحوا يتكلّمون عن البرمجة العصبيّة والطّاقة والنّور وإعادة تشكيل الشّخصيّة! وكلّ هذا كذب في كونه يوصل إلى التّزكية، فلا يمكن أن يوصل إلى تزكية نفسي وهؤلاء الذين أربّيهم إلّا الّذي نزل من السّماء، إلّا الّذي قاله خالق هذه النّفس.

فلا بدّ قبل أن أتكلّم عن أيّ تفاصيل في التّربية أن أعبد الله بعبادة: الاستغناء.

من يستغنِ بالله وبكلامه عن كلام الخلق يغنهِ الله، ويفتح عليه مدارك عقله، ويشرح له صدره، ويبيّن له الحقائق.

لكن من يفكّر أن يضع كلام الله وكلام غيره على مائدة واحدة، ويقول: سآخذ من كلام الله ما يناسبني وآخذ من كلام غير الله ما يناسبني، وسأصل إلى تربية سليمة! فهذا مخطئ.

عندما تأخذ من هنا ومن هناك تكون قد سوّيت كلام البشر الّذين لا يهتدون السّبيل بكلام ربّ العالمين! وهذا في حدّ ذاته يعتبر جريمة في حقّ مجتمعنا وجريمة في حقّ ديننا وجريمة في صحة اعتقادنا.

المشكلة أن تأتي هذه التّيّارات وتأخذنا بعيدًا زمنًا طويلًا، ثمّ نكتشف أنّها لا قيمة لها، ثمّ يأتي تيّار ثانٍ ونركبه! منذ عام ١٤٢١هـ ونحن نسمع عن "البرمجة اللّغوية العصبيّة" وانتهت وأتى بعدها كذا وكذا، وكلّ مركب مخروق يأتون به من عند أهل الكفر، يركبه أهل الإسلام، لماذا؟! ما حاجتنا لهذا كلّه؟ كلّ هذه الجهود لو بذلناها في كتاب الله -عزّ وجلّ- لكان استقام حالنا.

وإذا سألنا عن مجتمعنا: هل يتغيّر للأحسن أو للتّردي؟ فالجواب: أنّه للتّردي بصورة عامة -والاستثناءات موجودة- معنى ذلك أنّ كلّ ما ننفّذه ليس بمكانه، وأنّ هناك قيم كثيرة ذهبت؛ لأنّ مقاييس الصّواب والخطأ عند الكبار حصل لها حالة من الانقلاب.

نسأل الله أن يردّنا جميعا ردًّا جميلًا إليه ونكون ممن أحسن تعبّد الله بالاستغناء بكتابه وبسنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم.

الآن سنناقش حديث الصّحابي الجليل البراء ابن عازب -رضي الله عنه- الّذي علّمه إيّاه النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ليعلم ماذا يفعل عند النّوم.

سنقرأ الحديث ونقسّمه لمجموعة جمل ومباحث:

عَنِ البَرَاءِ ابْنِ عَازِبٍ، قَالَ: قَالَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ،

لا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الذي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الّذي أَرْسَلْتَ، وَاجْعَلْهُنَّ مِن آخِرِ كَلَامِكَ، فإنْ مُتَّ مِن لَيْلَتِكَ، مُتَّ وَأَنْتَ على الفِطْرَةِ. قالَ: فَرَدَّدْتُهُنَّ لأَسْتَذْكِرَهُنَّ فَقُلتُ: آمَنْتُ برَسُولِكَ الذي أَرْسَلْتَ، قالَ: قُلْ: آمَنْتُ بنَبِيِّكَ الّذي أَرْسَلْتَ.)[١]

الحديث له:

- مقدّمة في الأفعال وهذه الأفعال أمامها فوائد عظيمة.
- وله خاتمة وأمامها فوائد عظيمة.
- وله متن وهو نفس الدّعاء.

نتكلّم أوّلًا عن الفوائد التّربويّة في المقدّمة وفي الخاتمة، ثمّ نتكلّم بالتّفصيل عن الدّعاء:

النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يقول للبراء:

(إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ): هذا الإرشاد العمليّ من النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فيه إشارة إلى المطلب المهمّ الّذي يجب أن يعيش عليه المؤمن دائمًا وهو الطّهارة و**الطّهارة البدنيّة من أهم الوسائل لملاحظة الطّهارة القلبيّة**، بمعنى: عندما نريد أن ندخل للصّلاة سنفكّر أوّلًا في الوضوء قبل الصّلاة، والمتوضّئ يغسل أعضاءه طلبًا للطّهارة البدنيّة فيجعل الطّهارة البدنيّة مدخلًا للطّهارة القلبيّة الّتي قال الله فيها: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}[٢]

أي أنّ طاهر القلب ما صفته؟ منهيّ قلبه وبدنه عن الفحشاء والمنكر **فتدخل الصّلاة بالطّهارة البدنيّة وتخرج بالطّهارة القلبيّة** وأنت دائمًا تريد أن تدخل إلى ربّك بالطّهارة البدنيّة وتخرج من باب ربّك بالطّهارة القلبيّة.

الآن ما حال من هو ذاهب للنّوم؟ ذاهب فيسلم روحه لربّه. يجب أن تكون هذه هي مشاعرنا، أنّ النّوم عبارة عن إسلام الرّوح لله فيريد أن يدخلها وهو طاهر. هنا في هذه الرّواية قال: (فَإِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ).

إذًا كما يحتاج المصلّي في الصّلاة أن يُقبل طاهر البدن قاصدًا طهارة القلب، كذلك المقبل على النّوم سيجد طهارة القلب، لو فهم هذه الكلمات الّتي سيقولها وتأمّلها كما ينبغي، هذه الكلمات لو وقعت موقعها سيجد منها طهارة القلب فكأنّه

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٠).
(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.

يطلب بها طهارة القلب، فهو يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الذي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الّذي أَرْسَلْتَ) أين الطّهارة، يطهر من أيّ شيء؟

يتطهّر بالإيمان من الشّرك، **يتطهّر بالإيمان** من حوله وقوّته، **يتطهّر بالإيمان** من التّعلق بغيره، **يتطهّر بالإيمان** من الاعتماد على غير الله.

وهذا إلى حدّ كبير يشبه الواقف في الصّلاة فإنّ الواقف في الصّلاة المستحضر أنّه بين يدي الله، يبقى يناجيه مؤمنًا تمام الإيمان بأنّ الله يسمعه ويراه؛ فكأنّ العبد يتوضّأ من أجل أن يبدأ المناجاة.

المناجاة هذه العبادة العظيمة الّتي لو تمرّن عليها الصّغير فسيبقى في كلّ وقت في كلّ أزمة يناجي الله، ونحن دائمًا وهم صغار -غالبًا- نحجزهم عن الله! يعني نقول: لا تخف من الظّلام أنا معك! لا تخف من الفقر نحن معنا أرصدة! أنت لن تذلّ ما دمت أنا حيًّا! ومن هذا الكلام الّذي يقطع الطّريق بينه وبين الله والصّحيح أنّ الكبير والصغير يشتركان في أنّهم ينبغي عليهم أن يتعلّموا قوّة مناجاة الله، فنقول للصّغير: الله معك في كلّ مكان، الله مستوٍ على عرشه عالٍ على خلقه، معنا -سبحانه- بعلمه وإحاطته لنا جميعًا، قريب مجيب، هو الأوّل الّذي ليس قبله شيء، الآخر الّذي ليس بعده شيء.

فانظري لعبادة المناجاة كم هي واضحة في الحديث، فيكلّم ربّه ويخاطبه ويقول له: (اللَّهُمَّ -يا الله- إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ) فالمناجاة هي لبّ الأمر، فكما تطهر لتصلّي وتناجي الله، كذلك تطهر من أجل أن تسلم روحك عند النّوم وعند النّوم تناجي الله.

إذًا من آثار التّربية بالنّصوص: أن نعلّم أبناءنا أن يناجوا الله ولذلك عندما يرد في الحديث: (ولا يحافظُ على الوضوءِ إلّا مؤمنٌ)[1] فإنّ أحد مفاهيم هذا الحديث: أنّ المؤمن لا ينقطع عن مناجاة الله؛ لذلك تجده طوال الوقت متوضّئًا ومناجيًا -والمناجاة تصحّ سواء كنت متوضّئًا أو غير متوضّئ- لكن الّذي سيناجي يريد أن يطهّر قلبه، وتطهير البدن كالمدخل لتطهير القلب بالمناجاة.

(١) صحّحه الألبانيّ.

والذي سننتفع منه جدًا في التّربية أنّ الصّغير محتاج أن يناجي الله، صغير في مدرسته ليس قادر على أن يصل إلى المقصف[١] فلا ينظر لزملائه ويبكي بل يقول: يا ربّ مكنّي من أن أصل. يناجي الله! وليس الصّواب إذا حكى لي هذا الموقف أن أقول له: لمَ لمْ تذهب للمناوب أو المعلّم؟ بل أقول له: يا ربّ ساعدني وأعنّي! إن وجد هنا المناوب والمعلّم، ماذا سيفعل هناك في الأزمات الحقيقيّة؟! من سيجدّ غير الله وإذا ما تعلّم اليوم حقيقة المناجاة؛ فستبقى الأدعية مجرّد كلام يقوله وليس مناجاة يعيشها؛ ولذلك يقول أذكار النّوم وينام وتأتي له أحلام مزعجة فيقول: قلت الأذكار وما استفدت! نقول له: هل ناجيت الله حقيقة؟ هل فهمت ماذا تقول حقيقية؟ هل شعرت أنّك تثق في الله حقيقة وأنّك تصمد إليه؟ لا بدّ أن تفهم ما تقول وتناجيه بما تقول. وهذه من أهمّ الفوائد الّتي سنخرج بها من الحديث: أن نعلم أنّ العبد حين ينام ويستيقظ ويعيش وهو يدعو الله، يكون حينئذ عبد يقوم بأهمّ عبادة، يقول الله -عزّ وجلّ- في سورة غافر الّتي تدور كلّها حول موضوع الدّعاء والاستكبار: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[٢] {يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي} أي: يستكبرون عن دعائي. فأنت طوال الوقت ذليل منكسر بين يدي الله، تناجيه تسأله وتستعين به، وإن كنت مكسورًا فهو يجبرك، خائفًا من الفضيحة فهو يسترك، خائفًا من الفقر فهو الواسع الّذي يعطيك، وإن لم يكن عندك قوّة لتفعل فهو القويّ المتين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله وهكذا حتى تصبح الحياة كلّها تحت ظلّ مناجاة الله، كلّها: أعطِني ارزقني فهّمني علّمني. يدرس في المدرسة وطوال الوقت يقول: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}[٣] الله سيفهّمني، يتعلّم أن يقول: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}[٤] الله هو مَن يعلّم. فتبقى عبادة المناجاة معه طيلة حياته، وتصوّر كيف يكون توحيد هذا الّذي يعيش في الحياة واحد في الأرض وطوال الوقت ينادي ويناجي واحدًا في السّماء وكلّ مرة يتعرّف على ربّه، تأتي عليه مواقف فيقول: دعوت الله وما أعطاني والحمد لله أنّه لم يعطني لأنّه أعطاني أحسن من الّذي طلبته. فيبدأ يكتشف الحقائق بنفسه، نحن نقول له كلامًا ثمّ يعيشه، لكن حين لا نقطع عليه الطّريق، قد نكون قطّاع طرق على أبنائنا، والفرق بيننا وبين آبائنا وأمّهاتنا في التّربية أنّهم كانوا نتيجة ضيق الحال في الغالب يتّجهون لله؛ لأنّهم لم يكن عندهم كلّ الإمكانيّات الّتي تسمح بقطع الطّريق، لكنّنا كلّما طلب أبناؤنا شيئًا -نتيجة وجود نعمة الله علينا- نعطيهم، ونقول: ما دمت على قيد الحياة فلا تحمل همًّا، أنا أكفيك، لكن آباءنا -في الغالب- كانوا يوجّهوننا لله، وأهل جدّة بالذات كان البحر هو ما أنعم الله به عليهم ليسبب الرّزق، يخرجون للصيد ويعودون برزقه، ولك أن تتخيّل أناس يعيشون

(١) المقصف (الجمع: مَقَاصِف) هو اسم مكان من قصَفَ وهو مَحَلٌّ عُمُومِيٌّ لِلأَكْلِ والشُّرْبِ.
(٢) سورة غافر: ٦٠.
(٣) سورة الأنبياء: ٧٩.
(٤) سورة البقرة: ٣١.

على الصّيد كيف سيكون حالهم؟ سيكونون في غاية الذّلّ لله؛ لأنّهم يخرجون ولا يعلمون هل سيعودون أم لا! ولو عادوا لا يدرون هل سيرجعون غانمين أم لا! ولو أتوا بغنائم هل ستباع أم لا! فيبقى الذّلّ مستمرّ أمّا نحن اليوم الناس مطمئنّون أنّ راتبهم آتيهم آخر الشّهر، وخِزاناتهم مليئة بالنّعم فهذه كلّها أسباب لقطع الطّريق، فلا بدّ أن نوقد أنفسنا من الغفلة لتحصل المناجاة.

على كلّ حال، هذه فائدة عظيمة أن يتعلّم الصّغير كيف يناجي ربّه، يقول له: أسلمت وجهي إليك، فوّضت أمري إليك! واعلم أنّه لن يفهم كلّ عمق الكلام اليوم، لكن يفهمه غدًا وبعد غد وحين يكبر، فهذه الكلمات الّتي تقولها كأنّها تحفر بئر في داخل نفسه، أوّل الأمر تحفر نصف متر في داخل نفسه الصّغيرة الّتي لم تخض أيّ تجارب في الحياة، ثمّ عندما يكبر تحفر له متر ثمّ تموت وقد حفرت مئات الأمتار في داخل نفسه، يكون وقتها قد عرف الحقائق، فأصبحت كلمة "التّفويض" ليست مجرّد كلمة يقولها، بل كلمة يعيشها، لكن إن لم تدخليها من البداية وأعطيتِ لها عمق، كيف سيعيش المعاني؟ كيف سيفهم التّفويض؟!

مشكلتنا أنّ عندنا قناعة أنّ هذا الصّغير لا يفهم، وهذه الكذبة أتت لنا من من عند القوم الّذين لا يفهمون! وهي خطّة عجيبة ينفذّونها علينا، يقولون لنا: الطّفل في رياض أطفال لا يمكنه أن يفهم الحقائق الغيبيّة! -وتعليم المملكة والحمد لله مستثنى من بين تعليم العالم كلّه في كونهم يدرّسون توحيد الله في رياض أطفال- وفي مقابل ذلك ينقّذون للأطفال كلّ أفلام الكرتون القائمة على الخيال!!

كيف نفس الطفل تقولون عنه: لا يستطيع أن يتعلّم عن الله؛ لأنّه ليس لديه القدرة على الإيمان بالغيب وفي نفس الوقت تملؤون قدرته على الإيمان بالغيب بهذا الخلط من الخيال الباطل؟! لدرجة أن يصل هذا الطّفل الصّغير الّذي خلطت عليه الأمور إلى أنّه عندما تكلّمينه عن الله الّذي له القوّة، يأتي لك بأسماء من الكرتون يقول: هل الله أقوى من "سوبرمان" أو غيره!! لماذا يقول ذلك؟ لأنّ هذا "السّوبرمان أو غيره" الّذي شاهده في أفلام الكرتون، حلّ في المكان الّذي هو مستعد في نفسه وفي فطرته أن يكون هو القويّ على الإطلاق، هكذا خلقه الله -عزّ وجلّ- على فطرة أنّ هناك قوّة في الكون لكن هناك من له القوّة المطلقة، فيسبقونا قبل أن نعلّم أبناءنا أنّ الله هو القويّ على الإطلاق بأفلام الكرتون، ويضعون هذا وهذا في أنفسهم فحين تقولين له: الله هو القويّ، يقارن الله بمن حلّ مكانه في قلبه!

إنّ هذا الطّفل الصّغير قد جعله الله مستعدًّا فطريًّا أن يعرف من هو الله وسيسمع من الكلام الّذي يناسبه اليوم وغدًا سيحفر هذا الكلام في نفسه أمتارًا أبعد في نفسه إلى أن تمتلئ نفسه بهذه الحقائق.

المقصد أنّ عبادة المناجاة هي العبادة الأولى الّتي استفدناها هنا، وعلينا أن نعلّمها لطفلنا الّذي نربّيه من اليوم الّذي يفهم فيه الخطاب ويردّ الجواب ويستطيع أن يتصرّف كما ينبغي. **من هنا أبدأ أعلّمه أن يناجي الله ويكلّم ربّه، أن يقول: يا ربّ**، انظروا لصغارنا في البيوت، تجدونهم يقلّدوننا في الصّلاة، تجدونهم تلقائيًّا يفعلون مثلما تفعلين، ويقولون مثلما تقولين، ويخرج على لسانهم في كلّ اللّحظات: يا ربّ يا ربّ، **ثمّ هذه البداية تساوي نهاية مشرقة؛ لأنّ الإنسان يموت على ما عاش عليه.**

والّذي يكون مناجيًا لربّه طوال حياته، **لا يُظنّ في الله أن يخذله لحظة الموت** أبدًا، بل يُظنّ أن يسدّده لحظة الموت ويجعله يناجيه كما كان يناجيه صادقًا.

ثمّ أنّ الصّغير فيه من الصّدق ما فيه، وليس كحال متوسطي العمر أو المراهقين الّذين يريدون أن يجاملوك فقط! لكن الصّغير صادق في كلّ مشاعره، يسمع معك بكل مشاعره يكون موجود بكلّ مشاعره، ومن هنا يجب أن نفكّر في نعمة الله: لمَ رزقنا بالأطفال ومعهم هذا الصّفاء من النّاحية الفكريّة ولا يملكون أفكارًا سابقة؟ من أجل أن ننقش فيهم نقشًا، من ثلاث سنوات تقريبًا إلى قرب البلوغ ١٢ سنة، هو صافٍ، وكلّ الّذي تقولينه يعتبر بالنّسبة له مصادر، ويسمع ما تقولينه ولا يجادلك حول المعاني بل تدخل المعاني إلى قلبه مباشرة!

هذا كلّه من أجل أن يجري الأجر عليكِ، هذا كلّه لتعرفي أنّ التّربية أساس في صناعة هؤلاء، قال تعالى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِيْ}[١]{واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}[٢] هذه نعمة يجب أن تذكر.

الّذي خرجنا به الآن عمليًا:

أوّلًا: تدريبه على الوضوء قبل النّوم، بحيث يفتح عينيه ويكبر ويشعر أنّه مقصر إذا نام وهو لم يتوضّأ، فأنت عندما تدربينه من الصّغر أن يتوضأ فلتعلمي أن هذه ليست كلفة عليه، لا بأس، ستعانين قليلًا، لكن النّتيجة عظيمة، إذًا آخذه معي

(١) سورة طه: ٣٩.
(٢) سورة طه: ٤١.

يتوضّأ إلى أن يتوضّأ بمفرده، أكرّر عليه إلى أن يرى الوضوء أمرًا حاسمًا، وفي هذا لا بدّ أن يعرف أنّه بوضوئه سيصبح طاهرًا.

ثانيًا: أن يتربّى الصّغار على عبادة المناجاة لا بدّ أن يقول الصّغير: يا الله.

ثمّ نحاوره بكلام يسير لكي يفهم هذه الكلمات اليسيرة: "أسلمت، ألجأت، فوّضت" لتصبح في قلبه ثمّ يطمئن في نومه.

ثالثًا: قال رسول الله: (ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ): والمصالح في الاضطجاع على الشّق الأيمن تكلّم عنها أهل العلم القدماء والحديثين لكن بالنّسبة لنا بغضّ النّظر عن المصالح -والمصالح المادّيّة البدنيّة أكيد موجودة- النّبيّ قال: اضطجع على شقّك الأيمن، نقول: سمعًا، وطاعة. نقولها بمشاعر السّعادة بالسّمع والطّاعة، بمشاعر أنّ الممتثل يجد بركة امتثاله، بمشاعر أنّ من يقودنا لربّنا ويرشدنا للطّريق السّوي السّليم بكلّ تفاصيله إنّما هو هذا النّبيّ الأمين على الوحي الّذي يرشدنا لكلّ خير.

ولا بأس نفترض أنّ الطّفل عمره ٨ أو ٩ سنوات ويسألك: لماذا على اليمين وليس على الشّمال؟ هناك تفسيرات كثيرة لكن قبلها أهمّ تفسير أن نقول: النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أمرنا والنّبي -صلّى الله عليه وسلّم- لا يقول إلّا ما فيه مصلحة، النّبي -صلّى الله عليه وسلّم- أمين على الوحي، النّبي -صلّى الله عليه وسلّم- علّمه الله وما يقوله كلّه خير وبركة. فهذه فرصتنا لبناء قيمة توقير النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بحيث أنّ ما يقوله النّبيّ يصبح كالسّيف على عنقه، مجرّد أنّ النّبيّ قاله فهذا يكفيني.

وهذه المسألة مهمّة في التّربية بالنّصوص لأنّ أصل التّربية بالنّصوص: تعظيم القرآن والسّنة واعتبار أنّ ما جاء من عند الله ورسوله -صلّى الله عليه وسلّم- هذا يكفي العبد لصلاح دينه ودنياه.

الآن سننتقل إلى الفوائد الّتي وردت في آخر الحديث:

قال البراء رضي الله عنه: (فَرَدَّدْتُهُنَّ لأَسْتَذْكِرَهُنَّ): ردّد كلام النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ليحفظه.

هنا فائدة عظيمة: أن يعتاد الصّغير على الحفظ، يجب أن تكون هذه النّصوص محفوظة، وأفضل طريقة للحفظ أن يردّد، فمعنى ذلك حين أعلّمه في البداية أكرّر عليه الحديث وهو يردّد معي؛ إلى أن يحفظ، والآن الأمر أصبح سهلًا حتى من ليس لديه القدرة على أن يقرأ بصورة صحيحة، يمكنه أن يُسمع الصّغير الحديث من خلال أيّ مشغّل صوت، لكن الأصل

أنّ الأمّ أو الأبّ بعد أن يأمرانه بالوضوء ويأخذ مضجعه أن يلقّناه الحديث وهو يردّد وراءهم، هذا هنا في الحديث، وعلى وجه العموم التّرديد أحد أدوات الحفظ المهمّة الّتي تعين أيضًا على حفظ القرآن والسّنة.

الفائدة الثّانية: البراء رضي الله عنه قال: (آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الّذي أَرْسَلْتَ) فقال له النّبيّ: (قُلْ: آمَنْتُ بِنبيّك الّذي أَرْسَلْتَ) البراء وقع منه خطأ فبدلًا من أن يقول: (بِنبيّك) قال: (بِرَسُولِكَ) فصحّح له النّبيّ الخطأ. وهنا فائدة عظيمة نتعلّمها: ليس المقصود أن أنبّهه على الخطأ في الدعاء فقط، بل كمنهج في التّربية بالنّصوص، هذا التّصحيح سوف يدلّنا على:

- أنّه لا يصحّ لنا تجاوز كلام ربّنا وكلام نبيّنا.
- خطورة البدعة وأنّ أثرها على النّاس بلا شك كبير!

فالمحافظة على السّنة في بيوتنا مسؤوليتنا فلا تقع في أن تستحسن شيئًا أو تستهين بشيء، فتجد نفسك قد وقعت في بدعة، لا تفعل ذلك. وهذا سيفتح لنا الكلام حول ما يميّز أهل السّنة والجماعة عن غيرهم وهو: **متابعتهم لسنّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.**

أوّل الأمر يجب أن نعلم ما هي نتيجة عدم المتابعة؟

نحن نعلم أنّ أشدّ ما في يوم القيامة (العطش) وأنّ أمّة النّبيّ سيأتون غرًّا محجّلين من أثر الوضوء فيردوا حوض النّبيّ-صلّى الله عليه وسلّم- ويعرفهم أنّهم من أمّته فتأتي الملائكة تردّ بعضهم فينادي النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (يا رَبِّ أصْحابِي، فيُقالُ: إنَّكَ لا تَدْرِي ما أحْدَثُوا بَعْدَكَ)[1] إذًا يُمنع الإنسان عن الحوض مع شدّة العطش لأنّه عاش في الدّنيا مستهينًا بسنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وهذا الأمر فيه من الخطورة ما فيه!

واليوم بسبب وسائل الاتصال أصبح النّاس يُتخطّفون يمنة ويسرة، وهم مستجيبين دون أن يكون عندهم حتى خوف من الإسراع في الاستجابة! وهذا من الاستهانة بسنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- والتّقليل من نعمة الله علينا بحفظها.

وأكيد أنّكم تسمعون عن فلان وعلّان الّذين يستظلّون تحت ظلّ الكفّار، والكفّار ينفقون عليهم ويعطونهم ويقون في ديارهم ويرسلون علينا من سهام الكفر ما يرسلون، فتجدهم يقولون: "من قال لك إنّ صحيح البخاري صحيح! ومن قال ومن قال" ونحن يكون موقفنا في الغالب "موقف الاندهاش" بأيّ تيّار يأتي، فيكون المتكلّم كما وصفه الله: {وَمِنَ النّاسِ

(١) أخرجه البخاريّ (٦٥٧٦).

مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ(٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}[١] هذا الكلام ينطبق على من يرسل لكم مقطع وترونه، أمّا النّاشر والنّاقل والموافق على هذا الّذي يقوله مثله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كلّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ}[٢] فالأوّل رأس شيطان وهؤلاء أتباع للشّيطان {كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}[٣].

فهذا الاستسلام العجيب لأيّ ناعق ينعق هذا عجيب خصوصًا من قوم تربّوا على احترام سنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ثمّ نأتي فنقول: الّذي يقبل المسألة ويفكّر فيها، فليعرف في الصّنعة شيء، لكن غالب من يتكلّمون ما اقتنوا ولا عرفوا شيء عن صحيح البخاريّ في يوم من الأيام، ثمّ بكلمة مختصرة: لا يعرف الذّهب من غيره إلّا تاجر ذهب أمّا أن يكون بائع خشب! فهذا لا يصلح لأن ينقد الذّهب. والحقيقة أنّ هؤلاء ليسوا حتى تجّار خشب وليس لهم أيّ علاقة بالعلم الشّرعيّ. ولا يفقه قيمة هذه الكتب ولا منّة الله علينا بها إلّا من عرف ما فيها من الخير، أمّا الجاهل الّذي لا يعلم فأنّى له أن يقول: إن هذا الحديث ليس من السّنة! وللأسف ينفرط وراءه النّاس، وللأسف هناك مشاعر عند بعض النّاس: "كلّ شيء جديد نريده، كلّ شيء مثير نأخذه" مثلما فعلوا مؤخّرًا أنّهم يتفلسفون على الحروف المقطّعة في القرآن وقد ورد في الحديث الصّحيح (لو كان الإيمانُ بالثُّريَّا؛ لنالَه ناسٌ من أهلِ فارِسَ)[٤] أوّل أهل العلم هذا الحديث بأنّه: "لو كان العلم في السّماء بعيد، لناله ناس من فارس وقد تحقّق ذلك في البخاريّ ومسلم والتّرمذي والنّسائي وغيرهم، فقد كانت ميرزة هؤلاء كلّهم أنّهم من فارس وبخارى وهكذا.

ثمّ إنّ الله الّذي حفظ القرآن هو من حفظ السّنة، قيّد لها رجالًا، فالقرآن حُفظ بطريقة، والسّنة حُفظت بطريقة، وهذا أوّل شيء لا بدّ أن نتّفق عليه: أنّ المنهج كلّه واضح والله -عزّ وجلّ- ما ظلم أحد أبدًا، والسّنة تامّة الوضوح ومحفوظة كما أنّ القرآن محفوظ، لكن هناك كسالى وناس تاركين عقولهم للآتي والذّاهب وهناك قوم اجتهدوا للمحافظة على دينهم. إذًا هذا أوّل أمر نتفق عليه: أنّ السّنة محفوظة باقية والنّبيّ قال: (لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي علَى الحقِّ ظاهرينَ لا يضرُّهم من خذلَهم

(١) سورة الحجّ: ٨-٩.
(٢) سورة الحجّ: ٣.
(٣) سورة الحجّ: ٤.
(٤) صحّحه شعيب الأرناؤوط على شرط مسلم.

حتَّى يأتِيَ أمرُ اللَّهِ)[١] وهم أهل السّنة والجماعة وهم مَن جعل حديث النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أمام عينيه، عرفه، فقهه، عاش عليه.

الأمر الثّاني المهم: إذا اعتقدنا -وهذا يقين- أنّ سنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- محفوظة فالزّيادة فيها كالنّقصان، فنحن نعاني ممّن استبعد السّنة وتركها، وكذلك نعاني ممّن يزيد على سنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وكأنّه يقول إنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لم يكمل الشّرع!

وهذه الأخطاء أحيانًا تدخل في مزاحاتّ يأتي شخص في أوّل السّنة الهجرية يقول: هيّا نشرب حليب! هذه ليست عادات هذه متّصلة بالاعتقادات! اسأليه: لماذا تريد أن تشرب حليب؟ سيقول بمناسبة بداية السّنة الهجريّة! فهذا الفعل ليس مجرّد عادة، بل إنّهم يعتقدون أنّ له أثرًا في القضاء والقدر!

فكل البدع دخلت في البداية واستقرّت وأصبحت كالعادة، فكري جيّدًا هذه السّنة بما قُضي فيها بكلّ تفاصيلها إنّما هي من أقدار الله ومن قضائه. فالمقصد التّنبيه على خطر البدعة وعدم استسهال قبول أيّ شيء لم يرد في السّنة؛ لأنّ ذلك يجعل الطّفل غير متابع لسنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فعلينا أن نعلّمه أن يسأل: هل هذا من فعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ إذا كان الجواب: لا؛ إذًا لا تفعله، نقول له: لا تنسَ أنّ الحياة كلّها تحت أمر الله، أنت لا تُمنع من استخدام الحديد في أشيائك، أنت تُمنع من التّفكير بطريقة مختلفة، الّذي يشرب الحليب في أوّل السّنة الهجريّة، لا يشرب لأنّه اشتهى، هو يشربه لأنّه سيجعل قلوبهم بيضاء!

الآن بدّلًا من أن يقول البراء: (بِنبيّك) قال: (بِرَسُولِكَ) فصحّح له النّبيّ الكلمة؛ إذًا لهذه الدّرجة لا بدّ أن تكون دقيقًا مطابقًا لما كان عليه النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وكلّما كنت دقيقًا ومطابقًا كلّما كنت قريبًا للهداية، وقد ورد في صحيح البخاريّ في كتاب الاعتصام مثل ضربته الملائكة للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع ربّه: (فَقالوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا، وجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وبَعَثَ دَاعِيًا، فمَن أجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وأَكَلَ مِنَ المَأْدُبَةِ، ومَن لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ ولَمْ يَأْكُلْ مِنَ المَأْدُبَةِ، فَقالوا: أوِّلُوهَا له يَفْقَهْهَا، فَقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّه نَائِمٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، والقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقالوا:

(١) أخرجه التّرمذيّ (٢٢٢٩).

فَالدَّارُ الجَنَّةُ، والدَّاعِي مُحَمَّدٌ -صلّى الله عليه وسلّم- فمَن أطَاعَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقَدْ أطَاعَ اللَّهَ، ومَن عَصَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقَدْ عَصَى اللَّهَ، ومُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَرْقٌ بيْنَ النَّاسِ)[١]

- إذًا الله بنى الدّار الّتي هي الجنة.
- وجعل فيه المأدبة الّتي هي النّعيم.
- وأرسل داعيًا هو الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.
- فمن اتّبع الدّاعي دخل الدّار وأكل من المأدبة.

دعونا نرى كيف أنّ هذا المثل يقول لكِ: لا تلتفتي عن النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أبدًا:

الدّار لا أحد يعرف طريقها إلّا صاحبها والدّاعي، وهي في مكان بعيد...أُرسل الدّاعي وصَدّقه القوم، صدّق القوم أنّ هناك دار ومأدبة، ساروا وراءه وهم يحتاجون الدّار والمأدبة، ساروا وراءه وهم يسيرون وراءه ينظرون للدّاعي، مثل حملات الحجّ، تعرفون في حملات الحجّ يضعون أحد في المقدّمة معه الرّاية ولا بدّ أن ينظر النّاس إليه.

فالدّاعي أمامهم الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وهم وراؤه.

الآن كيف يكون حال من فكّر وقال: لا أظنّ أنّ الطّريق الّذي يمشي به الدّاعي صحيح، سأذهب لليمين أو اليسار؟! ضاع، انتهى، وهذا واضح جدًا بالحجّ والحياة مثل الحجّ، في الحج تتوه عن حامل الرّاية تدفع ثمن ذلك، تتوه عمّن يرشدك تدفع ثمن ذلك، كان وراء النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- الصّحابة رضي الله عنهم، كان وراء الصّحابة التّابعين، كان وراء التّابعين تابعيّ التّابعين، كلّهم ساروا في نفس الطّريق، ثمّ جاء أقوام انحرفوا عن الطّريق يمينًا ويسارًا، نأت نحن بعدهم نسير على نفس سيرهم فنجد هذه العناوين: معتزلة، أشاعرة...إلخ، ويأتيك الاختبار: هل تسير وراء النّبيّ، وراء آثار القوم؛ لأنهم أئمة نقتدي بهم أو تمشي يمينًا ويسارًا؟ فلا بدّ أن تفكّر تفكيرًا صحيحًا لكي تسير سيرًا صحيحًا.

فلا بدّ من مراجعات كثيرة، وأكثر شيء نحتاج فيها مراجعة علاقتنا بسنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فنسأل السّؤال الدّائم: هل هذا ممّا شرعه الله؟ هل هذا مما أقرّه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ سواء كان تصريحًا أو قياسًا لأنّه جدّت أمورًا على النّاس فأصبحوا يقيسون فيها، هل هذا الّذي نسير فيه على الطّريق أو ليس على الطّريق؟ فعلينا بمجرّد أن نشعر أنّ

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨١).

هذا الأمر ليس من دين الله وفيه بدعة، لا بدّ من الخوف، الدّين لا ينتظر اقتراح من أحد، وهذه المشاعر لا بدّ أن تكون عند صغيرنا. لكن نحذر تحذيرًا: ليس كلّ الّذي لا تعرفه تعتبره بدعة، لا تظنّ أنّ الّذي تعرفه هو السّنة وغيره بدعة لأنّك ليس عالم بكلّ شيء، فعليك أن تسأل أهل العلم: هل هذا الفعل سنّة أو بدعة ليس نحن من نصدر أحكامًا بالقبول، وأذكر لكم موقف من مسائل التّعالم:

موقف حقيقي امرأة توفّيت وابنتها معذورة شرعًا فتريد أن تدخل تغسّلها فيأت أحد يقول لها: لا تدخلي لأنّك معذورة! فتُحبس روح البنت، وإذا سئلت من أفتت: من أين لك هذا الاختراع؟! تقول: أشعر بالفطرة! كارثة هذا اسمه في دين الله: القول على الله بلا علم وهو أشدّ من الشّرك، قال تعالى: {قلْ إنّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[1] قال أهل العلم: **"إن لم يكن القول على الله بلا علم أعلى من الشّرك فهو بمنزلته"**.

معنى ذلك أنّنا سنخاف من البدعة ونبذل جهودنا لنكون على السّنة، لكن ليست البدعة الأمر الّذي استنكرناه، إنّما البدعة الأمر الّذي لم يأتِ في الشّرع.

الآن استفدنا من نهاية الحديث: أنّني كما سأربّي أبنائي على مناجاة الله وهذه تكون أصل عبادتهم مع الله أن يناجوه وأن يعظموه ويكون قلبهم ممتلئ بكمال صفاته، كذلك لا بدّ أن يكون عندهم توقير للنبيّ واعتقاد أنّه المرشد –صلّى الله عليه وسلّم– وكل ما يقوله حقّ، وأنّ تفكيري في حياتي ونظري للأمور، إنّما هو من وراء ما قاله الرّسول الكريم؛ فيصبح كلام النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– وأفعاله ممّا يُتداول في داخل مجتمعنا؛ ولذلك قلنا: من يريد أن يربي بالنّصوص لا بدّ أن يتعلّم النّصوص ويفهم النّصوص ويستغني بالنّصوص، وقتها لن تحتاجي أن تصرفي من وقتك ساعتين لتسمعي من يقول: في التّربية الحديثة افعلي كذا. لن تحتاجي أن تقرئي ل"دوركايم" ولا لغيره من الأسماء حتى لا نعرف أن ننطقها، بل اسمعي ماذا يقول النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– وأنت تقولين: "صلّى الله عليه وسلّم" تعرفين أنّ الله يُثني عليك؛ لأنّك تثني على نبيّك، وقولي: اللّهم اهدني وسدّدني والله سيرشدك وستفهمين من النّصوص ما يجب أن تفعليه، بذلك تتحوّل التّربية إلى عبادة تذكرين فيها الله والرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– وتسألين الله وتنكسرين بين يديه، وكما اتّفقنا في بداية اللّقاء "الحكمة ضالة المؤمن" لكن ليست في الشّرق في الصّين بل هي أمام عينيك.

(١) سورة الأعراف: ٣٣.

خرجنا بنتيجتين:

من أوّل الحديث: سنكون العباد الّذين يناجون الله ويعلّمون أبناءهم كيف يناجون ربّهم.

من آخر الحديث: سنكون القوم الّذين يوقّرون نبيّهم -صلّى الله عليه وسلّم- ويعلّمون أبناءهم كيف يوقّرون النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ولايتجاوزونه.

نتكلّم بإذن الله في تفاصيل النّص في اللّقاء الثّاني.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اللّقاء الثّاني

بسم الله الرّحمن الرّحيم

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله –عزّ وجلّ– حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا، ونسأله –سبحانه وتعالى– أن نكون ممّن اجتمع مِن أجله، ومِن أجل ذكره، ومِن أجل الاستقامة على دينه، وأن نكون ممّن خرج مخرج صدق، ودخل مدخل صدق، فجعل الله له مِن لدنه سلطانًا نصيرًا، سلطانًا على نفسه وعلى هواها، وسلطانًا على أبنائه وعلى رغباتهم وعلى تفلّتهم عن الاستقامة واستجابتهم للشّياطين.

أسأل الله –عزّ وجلّ– أن يحفظنا ويحفظهم مِن شرّ الإنس والجنّ، خصوصًا في هذا الزّمان الّذى تبيّن فيه على الحقيقة كراهية القوم الصّريحة لدين الله، وحربه، وكما قال الله –عزّ وجلّ– في سورة البروج: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[1] فالإيمان الموجود في قلوب أهل الإيمان وفي ديار أهل الإسلام سبب رئيسي لعدواة الأعداء مِن شياطين الجنّ والإنس، وسبب لتعاونهم سويًّا علينا وعلى أبنائنا، فلا ننسى هذا الأمر أبدًا، ولا نظنّ أنّنا بعيدون عن مخطّطاتهم، بل نحن وصلنا إلى مرحلة أن نكون ممّن يُشارك في تنفيذ هذه الخطط، فنحن بأنفسنا نأتي لأبنائنا بهذه الأشياء الّتي تفسدهم! سواءً ما يسمعونه أو ما يَرونه، مع التّقصير الواضح في الاهتمام بعقيدتهم وسلوكهم الموافق لدين الله. **ومِن أظهر مظاهر عدم الاهتمام بالأبناء وتربيتهم على عقيدة صحيحة هو ترك ما ورد عن النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– مِن ميراثٍ ضخم، فيه قواعد تربوية تدُلّ الخلق كيف يُربّون أنفسهم ويزكّونها وكيف يُربّون أبناءهم ويزكّونهم**، ترْك هذا الميراث الضّخم والالتفات إلى ما يأتينا مِن عند الشّرق والغرب واعتباره منهج مِن مناهج الحياة.

وسأُنمذج اليوم على نموذج واضح جدًا خصوصًا عند القوم الّذين لهم صلة بالتّعليم. مِن الأمور الظّاهرة الواضحة عند كثير ممّن يتّصل بتعليم الأبناء، هرم يسمّونه "هرم الاحتياجات الإنسانية"[2] فيرسموا هرمًا يضعون فيه احتياجات الإنسان، والمطلوب منّا أن نلبّي هذه الاحتياجات. وإذا لبّيناها بالتّرتيب نكون قد أحْسنّا في معاملة الأبناء.

- فيجعلوا قاعدة الهرم في الاحتياجات الإنسانية: الاحتياجات المادية، أيّ أن الإنسان يحتاج لأن يأكل ويشرب.

(١) سورة البروج: ٨.
(٢) هرم ماسلو.

- وبعدها يحتاج إلى الأمن.
- إلى أن نسير معهم في هذا الهرم فنجد أنّ رأس الهرم عندهم: (الحاجة إلى تحقيق الذّات).

فدَخَلَت هذه الكلمة عندنا وأصبحت لها أبعاد عريضة. يأتي الصّغير والمراهق والكبير فيقول: (سأفعل كذا لكي أكون موجودًا، لكي يكون لي ذات). والأمهات يقولون: (نحن نفعل له هذه الأمور لكي يحقّق ذاته)، ودارت هذه الكلمة بيننا. ثمّ حين تنظر في هذا الهرم، أهمّ ما تلاحظه أنّهم ما جعلوا أبدًا العبادة أو الدّين أو التّعلق بالله -عزّ وجلّ- أو معرفته حاجة مِن حاجات الإنسان، فعندهم الدّين والتّعلق بالله ومعرفة الله والاستعداد للدّار الآخرة، ليس مِن الحاجات، بمعنى أنّ الإنسان هنا كالأنعام بل هو أضلّ، وأنّ أحسن شيء فيه أن يبحث مَن هو، أيّ يحقّق ذاته، فيحقّق ذاته بأن يعمل، يحقّق ذاته بأن ينجح، يحقّق ذاته بالإنجاز، والإنجاز كلّه يدور حول الدّنيا. ولذا تجدهم يمدحون الشّرق والغرب، على أنّهم عُبّاد للمادّة، هذه الحقيقة، وكلّما أتى الكلام عن الإنسان وحاجاته أتى الكلام عن هرم الحاجات.

عندما تكون هذه حاجات الإنسان -مِن الحاجة إلى الطّعام والشّراب إلى الحاجة إلى الأمان- أين هي الحاجة للتّعلق والعبادة؟ أين موضعها؟! بل لِيُعْلم أنّ الحاجة إلى التّعلق بالله، والوقوف عند باب الله، ومعرفة الله في نفوس النّاس، أشدّ مِن حاجتهم إلى الطّعام والشّراب. وإذا حصل وكان النّاس في ضيق مِن شأنهم وذكروا ربّهم -وهم يعرفون مَن ربّهم- اتّسع لهم شأنهم. هم يقولون: (إذا لم يأكل ويشرب وينام ما يكون إنسانًا). ومع ذلك نحن مِن طاعاتنا وعباداتنا أن نبقى عشرة أو اثني عشرة ساعة صائمين، ونكون نائمين ونترك النّوم مِن أجل ربّ العالمين، نقوم فنصلي قيام الليل، بل أعظم مِن هذا أن يأتي النّاس في آخر الزمان -زمن الدّجال- فتحبس السّماء ماءها وتحبس الأرض خراجها، ويكون ذلك في ثلاث سنوات، فالأرض في السّنة الأولى تحبس ثلث خراجها والسّماء تحبس ثلث مائها، والسّنة الثّانية الثّلثان فيزيد الضّيق، والسّنة الثّالثة لا شيء مِن الأرض ولا مِن السّماء، فتسأل أسماء رضي الله عنها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- عمّا يُعيّش النّاس في ذاك الزمان، فقال صلّى الله عليه وسلّم: (يُجْزِيهِمْ مَا يُجْزِي أَهْلَ السَّمَاءِ مِنْ التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ)[1] أيّ أنّهم يسبّحون ويحمدون الله فتشبع بطونهم وتحيا أبدانهم، وهذا يعني أنّه ليس مِن الصّحيح قول أنّنا تحت رهن هذه الحاجات.

لكن هذا تفكير مَن؟ مَن الّذي تفكيره أنّك لو ما أكلت ولا شربت ولا نمت ما تكون آدميًا؟ ولو ما حققت ذاتك وأنجزت وبرزت أمام النّاس وأصبحت شخصًا مشهورًا ما تكون آدميًا؟ هذا تفكير العُمي، الّذين لا يبصرون عظمة الله وأمر

(١) أخرجه أحمد (٢٧٥٧٩).

الله، ولا يهتمّون بلقاء الله. هذا الكلام نقوله لأنفسنا لأنّ صورتنا في مسألة التّربية صورة عجيبة: كيف أهل الإسلام، أهل الإيمان، أهل القرآن الّذي هو نور وضياء، يتّبعون مَن وَصَفَهم الله -عزّ وجلّ- في كتابه أنّهم العُمي؟! وصفهم أنّهم الّذين لا يبصرون، وصفهم بأنّهم كالأنعام بل هم أضلّ. كيف يتّبع خير البريّة شرّ البريّة في التّربية؟ لو اتّبعت خير البريّة شر البريّة ستُخْرِج شرّ البريّة. والّذي نراه في الواقع هو هذا التّمهيد للشّر.

نحن نجتمع الآن مِن أجل أن نصل إلى قناعات نعتقدها يقينًا ونتقرّب بها إلى الله. نعتقد يقينًا ونتقرّب إلى الله بأنّ هذا الكتاب العظيم وهذه السّنة المباركة فيها الغَناء لأهل الإسلام عن أيّ نظرية تربويّة تأتيهم مِن الشّرق والغرب، عن أيّ لَيّ لعُنق النّصوص مِن أجل أن تُطابق الأدلّة نظريّة يأتون بها مِن الشّرق والغرب، نحن مستغنون عن عقل هؤلاء المكذِّبين، نحن مستغنين عن أفكار هؤلاء الّذين هم في مستنقع حُبّ الدّنيا. فهل آتي بأفكار مِن شرّ البريّة لخير البريّة حتى أجعلهم مِن شرّ البريّة؟ هذا في المنطق غير مقبول.

وقد تناقشنا فيمن يقولون لك: "الحكمة ضالّة المؤمن" ونحن نوافق على هذا ونقول بأنّ الحكمة ضالّة المؤمن حيث وجدها فهو أحقّ بها، لكنّها ليست ضالّة المؤمن في التّربية وفي غيرها، فالحكمة ليست ضالّتنا، نحن الّذين ضَلَلْنا الحكمة، الحكمة بين أيدينا. ألم توصف سُنة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في كتاب الله بأنّها "الحكمة"؟ إذًا الحكمة الّتي هي ضالّتك هي سُنة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فلا تحتاج لأن تذهب للصّين ولا تذهب لأبعد مِن كتاب الله.

إذًا المشكلة الأولى الّتي نعالجها في مسألة التّربية باستعمال النّصوص: هي أنّنا يجب أن نكون متيقّنين بأنّ النّصوص تكفينا، لا بدّ من ذلك، عقيدة نتقرّب بها إلى الله. فالّذي يؤمن أنّ الله -عزّ وجلّ- قال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}[1] والّذي يؤمن أن الدّين كامل، يؤمن أنّ كلّ ما يحتاجه لتزكية النّفس سيجده هنا في كتاب الله. ولا تظنّوا مِن هذا الكلام أنّنا لا نستعمل ما عند الشّرق والغرب مِن حضارة ماديّة، فكلّ شيء نعمّر به الأرض نأخذه مِن أيّ مكان؛ لأنّ هذا لا جنسيّة له. النّاس في الأصل عندما تحضّروا لم يتحضّروا فجأة، بل هؤلاء ورثوا عن هؤلاء، وهؤلاء ورثوا عن هؤلاء، فالحضارة الّتي تتّصل بإعمار الأرض ليس لها جنسيّة، تتنقّل، تدور، فالعرب تقدّموا في فترة من الزّمن ووصلوا لأمور، ثمّ ورثها غيرهم مِن الغرب، ثمّ أخذوها، ثمّ تنقّلت، فهذا الّذي يتّصل بالطّائرة أو السّيارة لا جنسيّة له، لا ثقافة له، وأنت قد تأتي بجهاز مِن الأجهزة الّتي صنعت لسماع المحرّمات وأنت تسمع بها القرآن، وهم يسمعون البلاء، فأنت تستعمل هذا الّذي أخرجوه في

(١) سورة المائدة: ٣.

الأرض لِما تريد، وهم يستعملونه لِما يريدون. إذًا هذا ليس لنا علاقة أبدًا به، إنّما نحن نتكلّم عن أنّنا في غناء عن أيّ أحد فيما يخصّ تزكية النّفس، فيما يخصّ إعمار النّفس.

إذًا هناك أمران:

١- هناك ما يتّصل بإعمار الأرض.

٢- هناك ما يتّصل بإعمار النّفس.

أمّا إعمار الأرض فقد تقدّموا هم فيه، وهم لنا فيه كالخدم المسخّرين، وهم شرقًا وغربًا ليس لهم إلّا أن يعملوا، ونحن بفضل الله ومنّته قد مُنَّ علينا بالمال بحيث أنّهم يصبحون بالنّسبة لنا عبيدًا فيه. فهم يعملون ليلًا نهارًا، ونحن بفضل الله نعبد الله ليلًا ونهارًا، وأيضًا نُرزَق أن نأخذ منهم ونصبح أسيادهم، ومِن هذا القهر الّذي هم فيه تراهم يصبحون ويمسون وهم ويقولون بأنّنا دول العالم الثّالث، وأنّنا كذا وكذا؛ لكي يقلّلوا مِن قيمتنا أمام أنفسنا، ولو كنّا كما يقولون لا نفهم ولا نستطيع ما كنّا أكبر أسواقهم العالميّة.

هذا الكلام لا يهمّنا الآن، إنّما ما يهمّنا أن نفهم أنّنا مستغنون بكلام الله وكلام رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- عن أيّ أحد يتكلّم في نظريات تربويّة، وعن أيّ أحد يتكلّم عن الطّريق إلى تزكية النّفس، وعن أيّ أحد يقول: (لو طبّقتم هذا فسيصبح المجتمع في حالة حسنة) وعن أيّ أحد يقترح علينا شيئًا يتّصل بمجتمعاتنا، يتّصل بصلاح بلداننا، أبدًا. أمّا صلاح الأرض فاتّفقنا على أنّ هذا أمر آخر.

إذًا ونحن نتكلّم عن التّربية باستعمال النّصوص، سنعبد الله بالاستغناء بكلام الله وكلام رسوله، كأنّنا نطبّق حديث النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ)[1] قال البخاريّ: **(يتغنّى: أيّ يغتني به)**. يصبح غنيًّا بالقرآن. فقوله (لَيْسَ مِنَّا): كأنّ هذا ناقص للإيمان الّذي ينظر للقرآن وينظر للنّظريات الأخرى ويراهم على حدّ سواء. وقد اتفقنا أن نكون واثقين بأنّ هذا الكتاب وهذه السّنة فيهما كلّ خير، وسنبقى نعيد على أنفسنا هذا الكلام كلّما التّقينا، وهذا بداية الطّريق.

(١) أخرجه البخاريّ (٧٥٢٧).

نأتي للخطوة الثّانية المهمّة: بعد أن نشعر أنّنا مستغنون، أن نكون حافظين لكتاب الله أو لكثير مِن الآيات، ونعرف كذلك كثيرًا مِن سُنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لكننا لسنا قادرين على أن نجمع بين الأمرين: (النّصوص والتّربية)، فنشعر بأنّ هناك انفصالًا بين النّصوص والتّربية، فماذا نحتاج إذًا؟ نحتاج لأن نفهم النّصوص فهمًا جيدًا، وهذا الكلام ابتدأنا به بالأمس. أنّني حين أربّي بالنّصوص لا بدّ أن يكون عندي القوّة في الشّعور بالاستغناء بالقرآن والسّنّة، وفهم النّصوص جيدًا، فلما نفهمها جيّدًا سنقول لأنفسنا: هذا النّص لو سمعته منذ زمن ما كنت فعلت كذا وكذا، أو ما كنت قلت كذا وكذا. فمثلًا تكون سمعت عن التّعلق بالله -عزّ وجلّ- وعن معنى اسم الصّمد، وعَرَفْت أنّه -سبحانه وتعالى- الصّمد الّذي يستحق أن تصمد الخلائق كلّها له، وأنّه هو وحده سبحانه ملجؤهم وملاذهم ومعاذهم، وأنّ التّعلق به فلاح، والتّعلق بغيره خَيبة وضياع لمن تعلّق بغير الله. ثمّ تقول لنفسك: لو أنّي منذ زمن سمعت هذا الكلام ما كنت بقيت متعلّقًا بفلان وعلان، ما كنت طرقت باب فلان، وما ذللت أمام فلان، وكنت عَرَفْت وقتها أنّ المفترض أن لا يقف قلبي إلّا عند باب الله. فماذا نحتاج أن نفعل في هذا الّذي اكتشفناه مؤخّرًا؟ أن نغذّي به أبناءنا، فحتّى لو مرّوا بتجارب ستكون أقصر مِن تجاربنا. ولنفترض أنّنا جربّنا وعمرنا خمسة عشر سنة، ثمّ وعمرنا ستة عشر سنة، ثمّ سبعة عشر، وظللنا نجرّب ونجرّب عشرة وعشرين سنة حتى خرجنا بنتيجة تقول: كلّ النّاس مثل بعضهم، لو تعلّقت بهم ستأتي اللّحظة الّتي يخيّبون فيها آمالك، فلا تتعلّق بهم، تعلّق بالله، وهم في السّبيل معك يساعدونك، لكن أنا وهم متعلّقون بالله. وانظر لهذا المعنى كم هو واضح جدًّا في سنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وانظر كيف كان النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- مع أبو بكر رضي الله عنه، فيقول له أبو بكر في الغار ما يقول، فيقول له النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}[1]، لم يقل له: (أنا معك) إنّما قال له: {إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} فكلّ اثنين بينهم علاقة يُقال لهم: الله معنا، فلا وجودي معك يجعلك مطمئنًا، ولا وجودك معي يجعلني مطمئنًا، إنّما نحن الاثنين الله معنا، إذًا نحن نسير في الطّريق المستقيم. فأنا أريد أن أصوّر الفرق بيننا عندما كنا لا نعرف هذا، وبين أبنائنا حين يعرفون، صحيح أنّ أبناءنا سيجرّبون أيضًا، لكن عندما يجرّبون وعندهم نورٌ يستضيئون به، سيقيّمون المسألة سريعًا، وسيقولون لأنفسهم: (حصل هذا لأنّي اعتمدت على غير الله، حصل هذا لأنّ قلبي توكّل على غيره) لكنّنا لم نكن نعرف سبب ما يحدث لنا، كنّا نتعلّق ونشعر أنّ هذا الصّاحب أو الزّوج أو الأخ سيسندني، ثمّ أجده يخذلني، وكلّ يوم نكتب في قلوبنا أو بأقلامنا: (الزّمن تغيّر، والنّاس أصبحوا يخذلون بعضهم البعض)

(١) سورة التّوبة: ٤٠.

ونشتكي كلّ حينٍ في هذا الزّمن، ثمّ فجأة اكتشفنا أنّ المشكلة ليست في الزّمن، بل كان لا بدّ أن يحصل هذا منذ زمن، إنّما نحن الآن فقط اكتشفنا الحقيقة.

فحين تربّي ابنك قل له: (لا ينفعك إلّا الله، أمّا النّاس فتصاحبهم، تسير معهم، تعيش معهم، لكن أنت وهم معكم الله). واعلم أنّه سيخطئ ابنك في يوم من الأيام ويضع ثقله على محبوبه، ثمّ يربّيه الله فيتأدب، سيعرف مباشرة حينها كيف يفسّر تربية الله له.

المقصد من هذا الكلام كلّه أن يصبح عندي مشاعر الثّقة واليقين في الكتاب والسّنة، وأفهمهم فهمًا عميقًا، خصوصًا أنّي أسمع وأعرف يقينًا أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أُوتي جوامع الكلم، فالقرآن من جوامع الكلم، والسُّنة من جوامع الكلم. فما معنى جوامع الكلم؟ أيّ أن الكلام قليل لكن وراءه معانٍ غزيرة، فعندما تأخذ هذا النّص فتضعه على هذا الجرح، سيكون سببًا في تطبيبه، وتأخذ هذا النّص نفسه وتضعه على جرحٍ ثانٍ بعيدٍ أيضًا، سيكون سببًا لتطبيبه، فمثلا تخاف وتضع اسم الصّمد على خوفك فيُطبّب، تحتاج وتضع اسم الصّمد على حاجتك فيُطبّب، ترجو آمالًا فتضع على آمالك اسم الصّمد فيُطبّب، وهكذا وهكذا حتى تصل إلى أن تجد بأنّ اسم الصّمد وحده -إذا فُهم فهمًا عميقًا- يوضع على كلّ هذه الثّغرات فتُسد. فالنّبي -صلّى الله عليه وسلّم- قد أُوتي جوامع الكلم. وأنت تخرج بفوائد عظيمة مِن نصّ واحد في الكتاب والسّنة، فوائد تتّصل بجميع نواحي الحياة.

لكن العيب أنّنا لسنا مُستغنين، ولأنّنا لسنا مُستغنين وضعْنا ثقلنا كلّه على الكتب الأخرى، وخصوصًا المثقّفين والمثقّفات والمربّين والمربّيات ذهبوا يترجمون في الكتب الأجنبيّة، ويقرؤون في ثقافات أجنبيّة هذا ماذا قال، وهذا ماذا قال في نظريّاته. وهؤلاء من أين يُخرجون نظريّاتهم؟ بالملاحظة، فنظريّاتهم فيها شيء مِن الملاحظة، وعندما يلاحظون يكتبون، ويعتبرون ما كتبوه نظريّة، ثمّ يأتي النّاس الّذين هم أعمى منهم فيأخذوا كلامهم على أنّه مُسلّم به، إلى أن يصل إلينا على أنّه مقطوع به، كأنّه حقيقة نزلت مِن السّماء!

هذا أعمى فكيف سيلاحظ؟ وإذا لاحظ فكيف سيُفسّر وهو أعمى؟! لكن انظر للفارق الشّاسع بين كلام الله، وكلام هؤلاء؟! كيف نكون حَفَظَة لكتاب الله، ومُرتادِين لمدارس التّحفيظ ولكلّ مكان فيه خيّر، ومِن جهة أخرى نربّي أولادنا على النّظريات؟! وهذا الكتاب العظيم المفترض أن ينتشر أثره على كلّ الحياة، فكتاب وصفه الله أنّه مبارك؛ إذًا بركته ستلحق الإنسان في كلّ شيء.

مَن الّذي سيغرف مِن بركة هذا الكتاب المبارك؟ الّذي يفهمه. لذلك لا بدّ مِن هذا الشّرط، وهذا أهمّ شرط عندنا: لا بدّ أن تفهم النّصوص بعمق مِن أجل أن تستفيد منها وتعرف كيف تضعها على المكان الصّحيح.

فالمسألة الأولى: أن نفهم النّصوص بعمق.

والمسألة الثّانية: أن نبقى مستحضرين للنّصوص. فلا تنس النّصوص، وكلّما تكرّرت علينا كلّما تقرّرت في نفوسنا، وهذه القاعدة مهمّة جدًّا علينا وعلى أبنائنا: (ما تكرّر تقرّر) فالشّيء الّذي يتكرّر يتقرّر. وانظروا كيف يتقرّر في نفوس النّاس ما يرونه هنا وهنا لأنّه يُعاد ويُعاد. وهذه نفسها خطّة الإعلانات التّجاريّة بالضّبط، فعلى سبيل المثال عندما تريدي أن تشتري مُنظّفًا أو شيئًا مِن هذه القبيل، وتكونين كلّما مشيت في الشّارع وجدت صورة هذا المنظّف –حتى لو لم تقرئي الإعلان– وكلّما فتحت أيّ أداة إعلاميّة –حتى لو كنت تريدين سماع القرآن– تجدين إعلانًا به صورة المنظّف في البداية، فحين تذهبين لتشتري مُنظّفًا، فتمشي وكأنّه قد سيطرت عليك فكرة وصورة هذا المنظّف؛ فتشتريه بدون تفكير، والسّبب في السّيطرة الفكريّة، وأنّ كلّ ما تكرّر تقرّر.

فلا بدّ أن نتّفق في بداية الأمر أنّ نصوص الكتاب والسّنة لن تنفعنا في تربية أبنائنا بها إلّا إذا كان في قلوبنا مشاعر الغنوة بها –أنّنا مستغنون بها–. والغنوة –بمعنى الاستغناء– لا بدّ أن يلحقه فهمًا عميقًا بالنّصوص، فتفهم الدّلالات التّربوية للنّصّ، ثمّ بعد ذلك تبقى هذه النّصوص مُستحضَرة دائمًا؛ لأنّ كلّ ما تكرّر تقرر في نفوسنا، وما يتكرّر في نفس أبنائي أيضًا سيتقرّر.

المسألة الثّالثة: وهذا يكون مع الموقف الّذي أعيشه أنا مع الصّغير. في بعض الأحيان أستشهد بدليل ونصّ وكلام مفهوم، لكن لا ينطبق على الموقف الّذي حصل، فقبل الحوار يجب أن أفهم الموقف نفسه، أحلّل الموقف الّذي يقف هو فيه، فلا أحكم مِن عندي على الموقف، إنّما أفهم الموقف جيّدًا لأضع عليه الدّليل جيّدًا.

المسألة الرّابعة: لا بدّ مِن مناقشات لكي تدخل هذه النّصوص إلى مكانها. ناقش الكبار مِن سنك في نفس النّصوص ثمّ ناقش الصّغار في النّصوص، فتبقى النّصوص متداولة بيننا. وقد ضربنا مثالًا بالأمس على أوصاف المؤمنين الأبرار في سورة الإنسان، قال الله –عزّ وجلّ– في حقهم: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}[1] ماذا يريدون؟ {إِنَّا نَخَافُ

(١) سورة الإنسان: ٨.

مِنْ ربّنا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا}[١] فما كان الجزاء؟ {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ}[٢]. فنبقى نتداول مثل هذا النّص ونفهمه ونبذل جهودنا أن نُوصِل أبنائنا إليه، خصوصًا وأنتم تعرفون الأطفال دون السّابعة تقريبًا لايقدّرون المال، لكنهم يقدّرون الطّعام أكثر مما يقدّرون المال، فلو أنّ الطّفل معه شيء يأكله، ومعه ريال، قليل مِن الأطفال الذين يُقدّرون أنّ الرّيال أهم مِن الطّعام مثلًا، إلّا على حسب تربية النّاس لكن الغالب هكذا، فحين تقول له: (أعطِ لأحدٍ طعامك) يقول لك: (لا) لكن إذا قلت له: (أعطِ لأحدٍ الرّيال) يَسْهُل عليه أن يعطي الرّيال. وتأتي الآيات بأنّهم يُطعمون الطّعام على حبه، فتبقى المناقشة أنّ أول الأشياء الّتي نحتاج أن نخرجها من قلب هذا الصّغير وأن يتدّرب على الإنفاق هو الشّيء الّذي يحبه، فالريال بالنّسبة له لم يكن تدريبًا، لماذا؟ لأن ليس له قيمه عنده، الرّيال الآن غير محبوب، إنّما المحبوب هو الطّعام، فالّذي ندرّبه عليه هو الطّعام الّذي يحبه، وهذه الأمور لها أمثلة كثيرة.

- ثم أتتنا القاعدة المهمّة إطلاقًا وهي أنّنا لن نُوفّق في هذا كلّه: لا في فهم النّصوص، ولا في استحضارها، ولا في فهم المواقف، ولا في مناقشتهم، إلّا إذا عبدنا الله بعبادة الاستعانة، ذلك الوقت يُوفّق العبد إلى أن يصل أن يُربي أبنائه مِن كلام الله وكلام رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

ثم أتينا للصّغير نفسه، ماذا أحتاج مع الصّغير لأجل أن يتربّى مع النّص؟

أوّلًا: لأجل أن تؤثّر النّصوص في الصّغير لا بدّ أن أبذل جهودي لأحافظ على فطرته السّوية، والفطرة السّويّة هذه موضوع يستحقّ في الحقيقة إفراده بالنّقاش، فكم وُهبنا فطرة سوية ونحن نقلبها، فمثلًا يأتي الصّغير ويجد والديه يفعلون أفعالًا في حياتهم، هي حسنة ويراها هو حسنة، ثمّ في خلواتهم ينقلبون، يفعلون الأفعال السّيئة، كأن يكذبون أو يخونون أو يُضيّعون الأمانة...إلخ، ففي البداية يبقى الصّغير مستنكرًا وجود هذا التّناقض، يبقى مستنكرًا مستنكرًا إلى أن تأتيه لحظة فيتصوّر أنّ الأمر طبيعي أن يكون مستقيمًا في الظّاهر وغير ذلك في الباطن!

مثلًا يكون طفلًا صغيرًا ويرى أمه محجّبة في بلادها، وهذا يوافق فطرته، فالحياء يوافق فطرته، ثمّ يركب معها الطّائرة فيجدها تخلع حجابها –وأنا أتكلّم عن موقف حقيقي– فيبكي يبكي طوال الرّحلة، ويقول لها: (لِم تفعلين هكذا؟ البسي). فيرى أنّ ما فعلته أمّه ليس بمناسب، هذا في المرّة الأولى، أمّا في المرّة الثّانية يَقْبَل التّناقض، يَقْبَل أن تكون صورتها هنا هكذا وهناك هكذا، فماذا حصل في فطرته؟ بدأت تتشوّه، بدأت تقبل التّناقض، ومِن مزايا الفطرة أنّها لا تقبل التّناقض.

(١) سورة الإنسان: ١٠.

(٢) سورة الإنسان: ١١.

ثانيًا: أقوّي الصّلة بالطّفل بكثرة الاتّصال معه بالكلام. ثروتي مع الطّفل في التّربية هي كلامي معه، فلأجل أن أربّيه بالنّصوص -بل من أجل أن أربّيه إطلاقًا- لا بدّ أن يبقى بيني وبينه الكلام، وقد مَرّ معنا أنّ هذا الشّيء اليوم أصبح يحتاج إلى وصية، أيّ أنّنا أصبحنا نحتاج لأن نوصّي بعضنا بأن نكلّم أبناءنا! وقد اجتمعت علينا أمورًا تسبّب هذا، منها انشغالنا وكثرة كلامنا مع النّاس، أيّ أنّ قدرتنا على الاتّصال بالنّاس شكّلت مشكلة عندنا، فأصبحنا نكلّم النّاس أكثر ممّا نكلّم أولادنا، وهذا أمرٌ نشتكي فيه من نفوسنا. الأمر الثّاني: أنّنا أصبحنا لا نطيق منهم مخالفة، لا نتحمّل أن نوجّههم، نريد أن نقول ثمّ يأتينا الرّد: (سمعًا وطاعة) بدون أيّ مناقشات.

ثالثًا: تعديل التّفكير. نحن نرى أنّ نتيجة التّربية أن نصل مع الصّغير إلى أن يستطيع أن يفكّر بطريقة صحيحة، يستطيع أن يحلّل الأمور بطريقة صحيحة، فمثلا تُدخلين عليه جملة: (ربّنا يربّي عباده)، و(الّذي يخالف ربّنا يربّيه)، فيقع منه ما يقع ثمّ يأتي فيقول لك: (ربّنا ربّاني). ماذا تعدّل في ذهنه؟ التّفكير. وسنوضّح المسألة أكثر بمثال:

- لو كنّا في بيت يُعلِّل كلّ شيء في الحياة وكلّ مشكلة حصلت له بأنّ عينًا أصابته. لماذا هذا نقص؟ عين، لماذا هذا مرض؟ عين، لماذا هذا لم ينجح؟ عين، لماذا هذا لم يوظّف؟ عين، لماذ هذا لم يدرس؟ عين، حينها سيخرج الصّغير وهو يحلّل المسائل على أنّها كلّها عين.
- انظر إلى بيت ثانٍ كلّ التّفكير عنده حظ. لماذا هذا وظِّف؟ عنده حظّ، لماذا هذا لم يحدث له هكذا؟ ليس عنده حظّ، يُقال له: اجتهد وادرس. يقول: لو كان حظّي سأصِلْ، ولو ليس لي حظّ فانتهى الأمر.
- بيت ثالث يفكّر بأنّه إذا كانت عندك واسطة ستصل مباشرة ولا تتعب نفسك ولا شيء، فلو كانت عندك واسطة عند الدّكتور ستصِلْ، ولو عندك واسطة في الجامعة سيسجّلونك، فتصبح الدّنيا كلّها هذه الكلمة. هنا سيفكر أن أيّ نجاح مرتبط بالواسطة، ويقول: (الله يبارك في الواسطة) فهذا كلّه اسمه تفكير، رغمًا عنه يأخذه ويفكّر فيه. ولو كان الانحراف عند الأباء بمقدار ثلاثين درجة فعند الأبناء يصبح تسعين درجة، يتضاعف فيصبح كأنّه منهج الحياة في التّفكير.
- والّذي يؤمن بالقضاء والقدر وبالله وعظمة الله. يقال له: ماذا حصل هنا؟ يقول: ربّنا سترنا. ماذا حصل هنا؟ ربّنا جبرنا، ربّنا ربّانا. تخيل الفرق الشّاسع بين بيت أهله يفكّرون أنّ الله يعاملهم، وبين بيت يفكّرون أنّ عينًا تصيبهم، أو حظًّا يلحقهم، أو واسطة تنفعهم! فرق كالفرق بين السّماء والأرض. وهل الصّغير لا يتأثر؟ يتأثر طبعًا.

فالنّتيجة الّتي نريد أن نخرج بها أن نعدّل تفكيره، أن يفكّر بطريقة صحيحة، فنربّيه بالنّصوص مِن أجل أن يصل في النّهاية إلى تعديل التّفكير، فيفكّر في المسائل بطريقة صحيحة. ولنضرب مثالًا على المراهقات، فإذا غضبت منها صديقتها أو

معلّمتها، أو خُطبت ثمّ فسخت. إلخ، وبدأت الأحزان تدخل عليها، فإذا كانت مِن جماعة الأحزان والقلوب والدّموع، ستُدخل نفسها في اكتئاب، وإذا كانت مِن الجماعة الّذين يفكّرون أنّ أيّ كسر يجبره الله، فستنكسر في سجودها لله وتطلب منه أن يجبرها. ولنرى الاثنين حين يريدون أن ينسوا الحزن، فأمّا الّتي من جماعة الدّموع والاكتئاب؛ لكي تنسى تقول: كلّ يوم أريد أن أخرج حتى أنسى، أو أريد أن أذهب للعمل حتى أنسى. أما الثّانية الّتي تَعْلَم أنَّ الّذي سيجبر كسرها هو الله، ستردّ النّسيان على أنّ الله جبرها. وهكذا تصبح الفوارق بين النّاس -من طفولتهم وشبابهم إلى أن ينضجوا- كالفارق بين السّماء والأرض. فتصوّروا الاثنين زميلات في العمل، كلاهما معلّمات، فبالرّغم من أنّهما متجاورتان ويدرّسان نفس المادة وقد دَرَسُوا نفس التّخصص، إلّا أنّ واحدة في السّماء وواحدة في الارض، بسبب التّفكير في المسائل وتحليلها. فسواءً كان الشّخص صغيرًا أو كبيرًا سيبقى أثر التّربية الأولى عليه في كيف يفكّر، فإذا قام بتعديل تفكيره فهذه نعمة مِن الله. إذا عرف مَن هو الله، عرف أنّه هو الّذي يجبر ويستر، وأنّه هو الّذي يرزق ويحفظ، فهنا صحّح تفكيره لكن إذا بقي على حالته ستبقى التّأثيرات الأولى في التّربية، فإذا كان مِن جماعة العين سيبقى العين، وإذا من جماعة الحظ سيبقى الحظ، وإذا الواسطة تبقى الواسطة، وإذا الدّنيا ومتعتها تبقى الدّنيا ومتعتها...وهكذا.

معنى ذلك أنّنا مع الصّغير نحتاج لثلاث أمور:

- نحافظ على فطرته السّوية.
- يبقى الحوار بيني وبينه.
- نفهم كيف يفكّرون، ونقول لهم كيف يفكّرون بطريقة صحيحة.

والصّغير كالصّفحة البيضاء، تكتب فيه أفكارًا فيعيشها مباشرة، وحتى لو دَخَلَتْ عليه أفكارًا باطلة سينعكس ذلك عليه مباشرة، ليس مثل المراهق، فالمراهق عندما تَدْخُل عليه أفكار، غالبًا أنّه يغلقها على نفسه ولا يُشعرك بها، لكن الصّغير كالصّفحة البيضاء.

متى يصبح الصّغير مغلقًا؟ عندما لا توجد لغة حوار بيني وبينه، لكن ما دمنا نتكلّم سويًا فهو سيقول أفكاره وأنت تصحّح عليه أفكاره. يأتي مثلًا ينظر إلى السّماء، وهو طفل صغير ربّما لم يتجاوز عمره الثّلاث سنوات، وكان المطر قد نزل ثمّ توقّف، فيقول لأمه: قولي لهم أن يقوموا بفتحه -يقصد فتح الصّنابير-، فيتصوّر أن المطر مِن السّماء مثل لمّا كان يغتسل. فَهِمَتْ أمّه كيف يفكّر، لما قال لها هذا الكلام، فهو تصور أنّ السّماء والمطر عبارة عن صنابير تُفتح وينزل منها المطر،

وليس أنّ الله ينزل المطر من السّماء، وهذا طبيعي، فطفل صغير عمره ثلاث سنوات قاس هذه على هذه وتصوّر المسألة بهذه الطّريقة. تصوّروا أنّكم في هذا الموقف، هناك جماعة يمكن أن ينظروا له ويضحكون ويقولوا لبعضهم: (تخيل تخيل أنّه فهم كذا) وانتهى الموضوع، وجماعة أخرى يتبيّن لهم الأمر فيقولوا له: هذا رزق من السّماء، الله هو الّذي ينزل المطر، الله هو الّذي يكوّن السّحاب. ولا تقولي: هذا لا يفهم، فهو فكّر وخرج بهذه النّتيجة، قام بعملية قياس، وهي دلالة أنّ عنده ذكاء، فقاس أنّ الّذي ينزل من السّماء مثل ما ينزل في دورة المياه، كلاهما ينزلان مِن فوق، فتخيّلهم يشبهون بعضهم البعض، فقاس وخرج بهذه النّتيجة، إلّا أنّ الفرق أنّ هذا في السّماء وهذا في دورة المياه. فأول ما قال هذا الكلام –لو أنّك تفهم جيّدًا وتستحضر النّصوص– ستستفيد من الموقف مباشرة، لكن لو تضاحكنا عليه ذهبت الفرصة وانتهى الموضوع، ويبقى يعتقد ذلك إلى أن يكبر ويصدم أنّ هذه ليست الحقيقة، وخسرنا هنا موقفًا من المواقف الّتي يمكن أن نبني فيها العقيدة، وخسرنا أن نقول له: هذا الموطن الّذي ينزل فيه المطر من الله فيه الدّعاء، فادعُ لنفسك ولوالديك. وهكذا.

حاول استغلال المواقف طوال الوقت، وفي نفس الوقت اكتشف كيف يفكّر الصّغير، وأوّل ما تكتشف كيف يفكّر وتعرف الصّواب –وبالتأكيد أنت تعرف الصّواب في مقابل عقله الصّغير– تقوم حينها بتعديل تفكيره.

طالبة تقول: "ربّما معاناتنا مع المراهقين أكثر"

الجواب: نحن في الأصل نتكلّم عن الطّفولة في البرنامج، لكن حتى هذا الكبير يحتاج أن تسمع منه وتعرف كيف يفكّر، ثمّ تُدخل عليه التّفكير الصّحيح. مثلًا الطّرفان الخطيران: الإلحاد والإرهاب، اللّذان نحن بينهما الآن مع المراهقين، هنا أيضًا يحتاج منّا المراهق أن نسمعه وهو يتكلّم، ونحن نتكلّم أيضا، حتى يفهم بأنّه لا يفكّر بالطّريقة الصّحيحة.

ثمّ كيف لا يصبح إرهابي –وأنا سأخرج خارج موضوعي الآن– كيف لا يصبح إرهابيّ في فكره وهو عندما يجلس مع والديه على الطّعام يقولون دائمًا: (هذا ناقص في البلد وذلك ناقص) وينتقدون وليّ الأمر ويسبّونه، ويتطاولون على كلّ كبير، وليس عندهم كبير يحترمونه! كيف لا يخرج إرهابيًّا؟! هذه صناعة داخلية، هذه القنبلة الّتي تنفجر نحن صنعناها في الدّاخل، دائما لسنا راضين عن شيء، انتقادات طوال الوقت، ولا يوجد رضى بما رزقنا الله، ونعتقد أنّهم يعطونا أو يمنعونا، وأنا وأقول لنفسي وأقول لكم: والله لا أحد يستطيع أن يمنع رزقكم من السّماء، لو اجتمعت الأمة –وليس الدّولة أو غيرها– لو اجتمعوا على أن يمنعوك، على أن يضرّوك، لن يضرّوك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك لن ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، لكن انظر للسلسلة وكيف الضّعف: طمع في الدّنيا، مع الحب لها، مع عدم رضا بالله،

ولا يوجد شكر؛ لأن الله -عزّ وجلّ- يقول: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}[١] الوعد مِن السّماء ليس مِن عند أهل الأرض، لكن الأمر كما وصف النّبيّ -صلي الله عليه وسلم-: (إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ) كما جاء في الحديث: (تَعِسَ عَبْدُ الدّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ)[٢] أيّ أنه عندما يصبح هناك راتبان، فقط تلك السّاعة يصبح فيها راضيًا (إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ) وطوال النّهار لا نرى إلّا السّخط.مثل هذه المواقف كأنّها تقول: أنا الّتي صنعت تفكيره، أنا بقيت منتقدًا منتقدًا ولست راضيًا. نحن أغلقنا على أنفسنا أحد زوايا المثلّث؛ لأنّ المثلّث عبارة عن الأعداء في الخارج، وضعوا أيديهم بيد المنافقين في الدّاخل، فبقي ضلع واحد ليصبح المثلث علينا، هذا الضلع هم أبناؤنا الذين في نفوسهم عدم رضا. مَن صنع أبنائنا الغير راضين؟ نحن الّذين صنعناهم.

المقصود من النّقاش أن هذه القاعدة تستمرّ على الكلّ: لا بدّ أن تحافظ على فطرتهم السّوية، ولا بدّ أن يبقى الحوار بينك وبينهم، ولا بدّ أن تفهم كيف يفكّرون، وتقول لهم كيف يفكّرون بالطّريقة الصّحيحة. لكن لو أنا بنفسي لا أعرف كيف أفكّر، كيف سأعلّمهم كيف يفكّرون! لو أنّ النّصوص ليست ظاهرة عندي، لو أنّ كلّ ما نعق ناعق سرت وراءه، لو سمعت مقطع بخمس دقائق مثلًا -كما تناقشنا بالأمس- يقول لك بأن صحيح البخاريّ ليس صحيحًا، شخص يخرج لك في خمس دقائق فيقول لك: صحيح البخاري ليس صحيحًا. والبخاري بقي ستة عشر عامًا يستخير مع كلّ حديث يضعه في البخاري، ورحلة سته عشرة عامًا، لم يكن نائمًا على فراشه ١٦ عامًا، كان يرتحل لأجل أن يجمع الأحاديث، وعرف مِن الرّجال ما عرف، وأصبح ينقدهم كما ينقد صاحب الذّهب الذّهب، فشيء حدث في ستة عشرة عامًا يأتيني مقطع في خمس دقائق يهدّه! وأنا ربّما ما فتحت صحيح البخاريّ في يوم من الأيام، ربّما ما رأيته بعيني، فحين أكون كالرّيشة في مهبّ الرّيح -هؤلاء يقولون كلامًا فأذهب معهم، وهؤلاء يقولون كلامًا فأذهب معهم- ماذا سأخرج من تحت يدي إلّا أسوء مني؟! فالمقصود أنّ هذا الكلام يطبّق عن الصّغير والكبير، وإن كان مقصدنا في اللّقاءات البداية بالطّفولة، لكن هذا الكلام ينفع الصّغير وينفع الكبير.

كان حديثنا المقصود بالدّراسة حديث البراء ابن عازب حديث النّوم، واخترنا هذا الحديث لما يحيط بالنّوم مِن أمور، وأهم شيء يحيط بالنّوم بالنّسبة لصغارنا هي المخاوف، فكثير مِن الصّغار يُعانون مِن مسألة الخوف، وربّما حين يكبرون أكثر

(١) سورة إبراهيم: ٧.
(٢) أخرجه البخاريّ (٢٨٨٧).

ويقتربون مِن سن المراهقة تصبح لحظات النّوم هذه لحظات أخطر مِن مجرّد المخاوف مِن الظّلام أو المخاوف مِن أيّ شيء، تصبح أصعب من ذلك، تبدأ الخواطر الجنسيّة وغيرها؛ لذلك ما يتّصل بالنّوم لا بدّ أن يكون محاطًا بالسّياج الشّرعي.

فأتى حديث البراء ابن عازب رضي الله عنه، فيه توجيه من النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ابتدأ هذا التّوجيه بالإشارة إلى مجموعة سُنن:

السُنّة الأولى: إذا أخذ مضجعه يتوضّأ وضوءه للصّلاة، واتفقنا بالأمس أن الطّهارة هذه فاتحة لأمر مهم، وهو أنّها فاتحة لطهارة القلب، والعبد يرى نفسه وهو مُقبل على النّوم أنّه سيُسلّم روحه لربّه، وربّما عادت وربّما لم تعد. وهذا يحتاج إلى تدريب مبكر، بمعنى أنّه يكون كسلانًا غالبًا عند النّوم، ونحن أيضًا نزيد الأمر فنقول له: (لو توضّأت ستنشط) وهذا ليس صحيحًا، ليس صحيحًا أنّه ينشط، لكن لو توضأ مِن أجل اتّباع سنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فوراءه الخير والبركة، يأتيك الخير والبركة، فلا تترك السّنة خوفًا من أنّ تطبيقها يضرّك، لن يضرّك أبدًا.

السُنّة الثّانية: أن يضطجع على شقّه الأيمن، وهذا وراؤه مصالح ما دام أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قاله، لكن نحن عندما نربّيه نعوّده أن يقول: سمعًا وطاعة، فإذا عرفنا المصالح بها ونعمة، وإذا ما عرفنا المصالح فلا أربّيه على أنّه لا يفعل إلّا مِن أجل المصالح، هذا مِن أفسد التّربية: صلّ لأنّك حين تصلّي وتسجد فالشّحنات السّلبية تذهب، والطّاقة كذا وكذا تأتي، كلّ هذا بكلمة مختصرة: باطل، ما أنزل الله به من سلطان، ولا تقولوا فلان قرّر، ووجدوا بالأبحاث، هذا كلّه يُضرب به عرض الحائط. ماذا قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ قال: اسجد. ماذا قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ قال: نمْ على شقّك الأيمن. ماذا تفعل أنت؟ تمتثل. فإذا ثبتوا أو فعلوا أو تركوا، هذا ليس شأنك، إنّما شأنك أن تمتثل ما أمر به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّ هذه الإثباتات يتنازعها الحقّ والباطل. نعم، هناك إثباتات صحيحة يصِلْ إليها النّاس، وهناك كلام باطل ما أنزل الله -عزّ وجلّ- به من سلطان. فمثلًا حين تقول: (اللّهم اجعل في قلبي نورًا وفي بصري نورًا وفي سمعي نورًا). عندما يريد أحد أن يؤوّلها يقول: هذا النّور هو الطّاقة. ويقولون: انظر كيف أنّنا نسأل الله طاقة في قلبنا وفي سمعنا وفي بصرنا! مِن أين هذا الكلام؟! هذا قول على الله بغير علم، وقد اتّفقنا أنّ القول على الله بغير علم إذا لم يكن أعلى من الشّرك سيكون في منزلته على أقل تقدير.

السُنّة الثّالثة: ذِكْر الله الّذي سيأتي في النّص. وموضوع ذِكْر الله هذا مِن أعظم المواضيع على الإطلاق، بل لو نظرت إلى عبادة مثل عبادة الحجّ، يقول فيها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في حديث عائشة: (إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَبالصّفَا

وَالمَرْوَةِ وَرَمْيُ الجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ عزّ وجلّ)[١] انظر لهذه العبادات العظيمة، في الأصل فيها ذكر الله، انظر إلى الصّلاة: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}[٢] أيّ أنّه أكبر مِن الفائدة الأولى. فالمقصد أن ذِكْر الله في الأصل هو قضية القضايا: لماذا تصلّي الصّلوات الخمس؟ لماذا تذكر بعد الصّلاة؟ لماذا كلّ ما احتجت تذكر الله؟ لماذا مِن أسباب شرح الصّدر ذِكْر الله؟ الحياة كلّها في أساسها أن تؤمن بالله –وهو غيب سبحانه وتعالى– تؤمن به وتبقى ذاكرًا له، ثمّ قسِّم اليوم ستجده كلّه ذكر لله، مِن بسم الله وأنت تكتب، بسم الله وأنت تأكل، بسم الله وأنت تشرب، الدّعاء وأنت تخرج من بيتك، الدّعاء وأنت تدخل إلى بيتك، تفاصيل الحياة كلّها تشترك في أمر واحد: ذِكْره سبحانه وتعالى. يؤذّن المؤذّن فتردّد وراءه ذكرًا لله، تصلّي تذكر الله، تقرأ القرآن تذكر الله، تخرج وتدخل تذكر الله، فذِكْر الله شأنه عظيم فوق ما نتصوّر وفي الحديث: (الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ)[٣] وهذا دليل على أنّ ذِكْر كلّ شيء غير ذِكْر الله أو ما يوصل إلى ذِكْر الله لا قيمة له، بل هو ممّا يفسد القلب، ممّا يضيّق الصّدر، ممّا يكون وسيلة لتسليط الشّيطان على الإنسان، ونحن نرى المجالس الّتي يجتمع فيها النّاس على ذِكْر الدّنيا، لا بدّ أن يكون نهايتها اليوم أو غدًا أو بعد سنة تكون فيها من المشاكل ما فيها، وكلّ المجالس الّتي يجتمع فيها النّاس صادقين على ذكر الله، لا بدّ أن تكون مباركة وأهلها يلحقهم البركة مِن وراء ذِكْر الله عزّ وجلّ.

ذِكْر الله ومناجاته كما اتّفقنا مِن أعظم العبادات على الإطلاق، ذِكْر الله ومناجاته –سبحانه وتعالى– في الحقيقة روح الحياة، أكثر شيء نريد أن نعلّمه أبناءنا صغارًا كانوا أو كبارًا، متوسّطين في العمر أو متقدّمين في العمر: أن ندرّبهم على المناجاة. قَلّتْ مناجاة الله خصوصًا في هذا العصر والسّبب أنّ الإنسان عنده مشاعر أنّه يستطيع أن ينجز بنفسه أشياءه، يستطيع أن يحصُل على ما يريد، يستطيع أن يفعل ما يريد، لكن عندما يظهر الذّل والضّعف والانكسار، وحين يعرف الإنسان حقائق كلّ شيء، وحين تُوصَف له حقائق كلّ شيء، يعرف حينها أنّه لا يستطيع شيء إلّا بالله، لا حول ولا قوة إلّا بالله، والله –عزّ وجلّ– يُذيقنا بعض هذا، فكم مِن المرّات كنا نبات عازمين، ونصبح لا نفعل، كم من المرات نخرج قاصدين، ثمّ لا نصل، كم وكم من المرّات وصلنا إلى مقصدنا بالضّبط لكن ما استطعنا أن نفعل ما نريد! وهكذا تُصبح الحياة عبارة عن فلك اختبارات: أنّك لو ما استعنت بالله، لو ما ذكرت الله، لو ما خرجت من حولك وقوتك إلى حول الله وقوّته، لا بدّ أن يأتي اليوم الّذي تذوق فيه ضعفك. ماذا عن المرّات الّتي لا أستعين ولا أطلب من الله الحول والقوة ومع

(١) أخرجه أبو داود (١٨٨٨).
(٢) سورة العنكبوت: ٤٥.
(٣) أخرجه التّرمذيّ (٢٣٢٢).

ذلك أصل إلى ما أريد؟ إنّما هذا مِن آثار حِلْم الله؛ لأنّ الله لا يُعاجل على العباد العقوبة علَّهم يتذكّرون. فإذا بقينا نظنّ أنّنا نستطيع أن ننجز بأنفسنا كلّ شيء ستذهب المناجاة، وهي لماذا ذهبت الآن؟! انظر اليوم إلى موقفنا، وفي المقابل موقفنا في الزمّن الماضي مِن استحفاظ أبنائنا، اليوم السّائق معه جوّال، وأنا معي جوّال، وأولادي يأتون في السّاعة الفلانية، فإذا تأخّروا مثلا، لا توجد أيّ كلمة يا ربّ احفظهم، يا ربّ أوصلهم سالمين، إنّما مباشرة أتّصل أطمئن أين هم! ففقدنا -بسبب قدراتنا- بقاء المناجاة مع ربّنا في كلّ شيء. مثلًا تقول: أريد أن أنجز هذا العمل. يقولون لك: (هذا الجهاز ينجز هذا العمل بسرعة). كنْتَ تنجزه سابقًا بالدّعاء والاستغاثة والاستعانة، أمّا اليوم فتشعر أنّك تنجزه بمجرّد وجود الآلة. وهكذا زادت في قلوبنا مساحة الدّنيا ونقصت الآخرة مِن جهة مناجاة الله عند كلّ حاجة. أين اختبارنا؟ اختبارنا أنّه رغم وجود كلّ هذه الأدوات لكن أبقى أنا صاحب مناجاة. ونحن نرى أبناءنا كيف درسوا ووصلوا إلى اختباراتهم وتمكّنوا من الاختبارات، قرؤوا الأسئلة وقالوا: هذه كلّها درسناها، هذه كلّها نعرف إجاباتها. ثمّ يصلون إلى نقطة معيّنة وكأنّها مُسِحت مِن عقولهم! ما هو الدّرس هنا؟ أنّ إنجازك بأمر الله، بقدرة الله، بعطيّة الله، ليس بعقلك وتركيزك ودراستك وفهمك، ومع ذلك نخرج مِن الدّرس كأنّنا ما درسنا، ويُعاد علينا كلّ مرة، وفي كلّ مرة يقول: (المرّة القادة سأتحاشى هذا الخطأ ولن أفعل كذا وكذا) ويكون النّاتج أن نقع في خطأ أكبر منه، في ثغرة أكبر منها.

ولننظر إلى النّاس وذِكْر الله في مقام مثل مقام الحجّ، هذه كانت الطّامّة الّتي دلّت على أنّ الدّنيا أزاحت مِن نفوس النّاس الآخرة إلّا مَن رحم ربي، وسأتكلّم عن الأغلب، فالاستثناءات موجودة، إنّما أتكلّم عن الأغلب الأعمّ، خصوصًا النّاس الذين فُتنوا بالقطار، الّذي هو هبة مِن الله وعطيّة، وخرجوا من بيوتهم أظنهم كانوا يظنّون أنّهم ذاهبين إلى رحلة سياحية خمسة نجوم! فلمّا وصلوا إلى مخيّماتهم وجدوا أنّ الّذين سيفوّجون بالقطار على أقل تقدير تسعمائة ألف شخص، مليون إلّا مائة، ووجدوا أنفسهم في وسط المليون إلّا مائة، في الزّحام، وأصبحوا طوال الطّريق لا يذكرون إلّا القطار، بدلًا من أن يقولوا: لبيّك اللّهم لبيّك، فقط يتحدّثون عن القطار والنّاس والزّحام. ثمّ ركبنا وذهبنا لعرفة، موعد مع الملك، هذه العشيّة العظيمة، النّاس في ديارهم ينظرون في بيوتهم عبر التّلفاز ووسائل الاعلان أنّه ما أحسن مقامكم يا أهل عرفة، إنّكم في خير مقام، حَمَلَكُم الله وأوصلكم ووصلتوا إلى عرفة، فمَن في الدّيار مشتاقون، ومَن في عرفة -إلّا من رحم ربي- يذكرون القطار بدلًا من أن يذكروا الله، فيقولوا: (حصل لنا كذا وكذا وتأخّرنا، وحصل كذا، والقطار) وهناك مَن يدعو الله أن يتعطّل القطار، فيذكروا القطار أكثر مما يذكرون الله. يأتون يقال لهم: هيا سننفر مِن عرفة إلى مزدلفة عن طريق القطار. فيقول أحدهم: (والله لا أحجّ مرّة ثانية). وهل كان الله بحاجة إلى حجّه؟! وهكذا وهكذا، ونرجع حتى نعلم {لَئِن شَكَرْتُمْ

لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[١] فنرجع إلى منى في يوم العيد ونصاب بذاك المصاب العظيم الّذي قد أدمى القلوب في حادثة التّدافع، ويزيد البلاء بلاءً، ويزيد الاختبار اختبارًا. فمِن قبل الحج حادثة الرّافعة قد أخذت ذِكْرهم، وبدلًا من أن يلبّوا كانوا يتكلّمون عن الرّافعة، ثمّ وصلنا وأصبح القطار بدلًا من ذكر الله، ثمّ أتينا يوم العيد وأصبحت حادثة الرّافعة مع القطار! وأهل البلد المفترض أن يكبّروا الله في هذا اليوم العظيم، في يوم العيد الّذي قال عنه أهل العلم في بعض النّصوص إنّه ربّما أعظم مِن يوم عرفة، ذاك النّهار العظيم الّذي ينبغي أن يُذكر فيه الله -عزّ وجلّ- أكثر مِن ذِكْر آبائنا كما جاء في آيات سورة البقرة؛ لأنّهم كانوا يجتمعون في نهار العيد فيتفاخروا بآبائهم، فالنّاس اجتمعوا نهار العيد، لكن تكلّموا عن كلّ شيء يشغلهم عن ربّهم.

حادثة التّدافع حادثة ألمت بالمسلمين، لا بدّ أن نتكلم عنها، لكن حين نتكلّم عنها يكون أول ما نقول: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون) ألسّنا عبيدًا لله؟ نقول: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون). نقول: (رحم الله موتاهم)، نقول: (شفى الله جرحاهم)، نقول: (جبر الله كسر قلوب أهاليهم)، نقول: (أعان الله الدّولة على القيام بما يجب). لكن كلّ النّاس أصبحوا وزراء، كل النّاس أصبحوا فاهمين، فلا يوجد قطاع إلّا وتكلّمنا فيه، سواء الدّفاع المدني تكلّمنا فيه، ورزاة الدّاخلية تكلّمنا فيها، كلّ هذا، وكثير مِن الّذين يتكلّمون لا يعرفون "مِنى" نفسها، لم يروها من قبل، شارع ٢٠٤ أو الشّارع المتقاطع به أصلًا لا يدرون عنه شيئًا، ولا يعرفون مساحته وما هو. فقط فلسفة، وكلّ هذا يساوي شيئًا واحدًا، يساوي أنّ ذِكْر الله ينتهي، وذِكْر كلّ أحد غير الله هو الّذي يظهر، والاختبار كان أنّ هذه الأيام كانت أيام الذّكر، سواءً كان المطلق أو المقيّد، سواءً كان لأهل البلاد أو للحجّاج، فأتى عليهم ما يقطعهم عن ذكر الله، وقيل: هيّا هل ستذكرون الله أم تذكرون غير الله؟ ثمّ إنّ تناول الأسباب في مثل هذا الموقف ليس عَمَلنا، تصوّري الموقف بالضّبط مثل أن تكوني سائرة في شارع، ورأيتِ أمامك حادث، شخص صدم الآخر، وامرأة سقطت مِن الحادث، والسّيارة هربت، ثمّ تقومي أنتِ بكلّ قوّتك فتجري وراء السّيارة، ماذا تقول لكِ المرأة الّتي سقطت؟ (تعالي احمليني أنا، لا تركضي وراء السّيارة. أوّلًا لن تستطيعي اللّحاق السّيارة، ثانيًا: هذه وظيفة المرور، وأنا الجريحة الّتي أنزف تعالي احمليني). هذا بالضّبط مثل موقفنا لما حصلت حادثة التّدافع، هؤلاء يحتاجون سؤال الله الرّحمة في هذا الموقف، هؤلاء يحتاجون أن نسأل الله لأهلهم الجبر، يحتاجون أن نسأل الله أن يشفي مرضاهم.

إذا عرفنا ما هي وظيفتنا عرفنا أنّ حياتنا كلّها ستبقى دائرة حول ذِكْر الله. نحن نُصاب بالمصاب، فنبكي ونتكلّم بكلام لا يليق، بدلًا مِن أن نذكر الله -عزّ وجلّ-، تأتينا النّعمة فنفرح بها ولا نذكر الله ولا نشكره، يختبرنا الله -عزّ وجلّ- في

(١) سورة إبراهيم: ٧.

أحبابنا فلا نذكره وندعوه أن يحفظهم، ونبقى طوال الوقت رسوبٌ يلحقه رسوب، إلى أن نأتي إلى موعد النّوم نحن وأبناؤنا، دائمًا نتكلّم عن المخاوف الّتي تلحقنا سواءً نحن أو أبناؤنا، مع إنّنا نعلم أنّ ذِكْر الله مِن الأسباب المهمّة لذهاب الخوف سواء أنت مستيقظ أو نائم، لكن نرى أنفسنا نتكلّم ونتكلّم عن كلّ شيء ونحن قريبي النّوم، ونأتي بثقافات أخرى ونحكي لهم حكاية ما قبل النّوم...إلخ، إلى أن نصبح في غاية مِن التّعب، فيأتي الكلام البطيء، بالكاد نقرأ آية الكرسي ونحن لا نفهمها، أمّا الباقي فقد نمنا وانتهينا، فتذهب طاقاتنا في كلّ شيء، وحين نأتي إلى ذِكْر الله نجد أنّنا ليس عندنا طاقة، ومن ثمّ ماذا سنستحضر مِن معاني ما نقرؤه؟ وماذا سيطمئنّا مما سنقرؤه؟ إذا لم نفهمه ونقوله ونحن مجموعي القلب فلا ينفع في الأثر، وإن كان في الأجر نرجو مِن الله أن ينفع، لكن كلامًا لا تفهمه لن يغسل قلبك مِن المخاوف، فكيف يقول عبدٌ: {أَعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ}[١] ويبقى خائفًا؟ إلّا لو لم يكن عالمًا بمعنى "أَعوذ" و"ربّ النّاس" و"ملك النّاس" و"إله النّاس" فلو عرف مَن هو ربّ النّاس، ملك النّاس، إله النّاس، وعرف معنى الاستعاذة به، ما كان وقع في قلبه الخوف، لكن هذا غير مفهوم.

نحن أو صغارنا نتخيّل المعوّذات وأذكار النّوم أنها عبارة عن كلمات نقولها وأثرها أنّها تبعد الشّيطان، هي بنفسها تبعد الشّيطان، وليس أنت تفهمها وتتيقّن بها وتصبح عقيدة لك، وإذا وسوس الشّيطان دفعته هذه الأشياء، لا، كأن الأذكار عبارة عن تعويذة تشملك، والأمر ليس بهذه الصّورة، إنّما حين تفهمها وتتيقّن بها وتعتقدها تنفعك، فليست هي تميمة تلبسها فتدفع عنك، هي عقيدة تحْمِلها، فأول ما يأتيك وسواس الشّيطان تستطيع طرده، ومِن آثارها أنّ الله يحميك بسبب ما تعتقده. خاف أبو بكر رضي الله عنه فقال له صاحبه: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}[٢] فكان تذكيره بهذه الكلمة كافيًا لأبي بكر رضي الله عنه لأن يثبت في موقف المخاوف.

المخاوف مِن أشد الأشياء الّتي تمر علينا نحن وصغارنا، والحياة تزداد مخاوفًا. لما صارت حادثة الرّافعة وشعر الصّغار بها، قد يمرّ على خاطرهم أنّنا لا نريد الذّهاب إلى مكة، لا نريد الذّهاب للحرم بسبب الرّافعة، هذا الموقف لا بدّ أن يأتي فيه معالجة للمخاوف، لا بدّ أن يُقال فيه إنّنا في حفظ الله، هذا قضاء الله، هذا اختيار الله، وبالتأكيد مرّت عليكم كثير مِن المقاطع الّتي أتت في هذه الحادثة وكيف كان النّاس يسيرون إلى قضائهم، كيف كان النّاس ينصرفون عن هذا القضاء أو

(١) سورة النّاس: ١.
(٢) سورة التّوبة: ٤٠.

يذهبون إلى هذا القضاء، هذا كلّه بأمر الله. نحن بيد الله، ويظهر في المواقف ضعف الإيمان بالقضاء والقدر، هذا الرّكن العظيم الّذي هو أصل اختبارنا.

فالأمور يكشف بعضها بعضًا: نخاف بسبب ضعف الإيمان، يكون العلاج ذكر الله، نذكر الله ولا تكون هناك قوّة في ذكر الله، فتسحب الأشياء بعضها بعضًا. نسأل الله -عزّ وجلّ- أن يقوّي إيمانّنا ويجعلنا ممّن يذكره بقلبه ولسانه. ونعيد على أنفسنا: الذّكر باللسان ينفع صاحبه، من المؤكّد أن الّذي يذكر باللسان خير ممن لا يذكر الله، لكن أقوى مِن ذلك وأنفع مِن ذلك مَن يعتقد فيتواطأ قلبه مع لسانه.

نأتي الآن إلى الأذكار:

أوّل جملة في هذا الذكر (اللّهم أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ).

نبدأ بهذه الحقيقة المهمّة، سنفهمها نحن أوّلًا ثمّ نقول ماذا سنقول لصغيرنا. أول جملة في الحديث: (اللّهم أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ). (اللّهم): أيّ: يا الله، أيّ أنّ هذا الآن يناجي الله فيقول: يا الله أسلمت نفسي إليك، ونبدأ بمعنى (أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ). (أَسْلَمْتُ) هذه تناسب جدًّا اسم الدّين، بمعنى: استسلمت، وهذا سنقوله وقتما ننام ونعيشه في يومنا كلّه، أيّ أنّك وقتما تنام تقول: (أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ) وأنت طوال اليوم واللّيلة مستسلم لله، ومِن هنا نأتي لمناقشة أمور حول مسألة الاستسلام: الاستسلام أصلًا، والاستسلام المتّصل بلحظة النّوم.

أمّا الاستسلام أصلًا: فهو أصل الدّين، فأصل ديننا أن تكون مستسلمًا، هذا على اعتقاد أنّ الّذي تستسلم له كامل الصّفات، يستحقّ أن تُسلّم نفسك له، تستسلم لأمره، ترى أنّ كلّ أمره خير، فأصبح الاستسلام متّصل بعقيدتين: عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وعقيدة الإيمان بكمال الشّرع. كأنّ العبد يقول: (أنا مستسلم لكلّ أمر شرعي أمرتني به، وأنا مستسلم لكلّ قضاء قضيته عليَّ) فمِن جهة الشّرع:

هذا عبد يعْلم أنّ الله حكيم في شرعه.

ومِن جهة القدر يعْلم أن الله حكيم في قدره.

إذًا الدّين كلّه مبني على ذلك، وخصوصًا أنّ الدّين فيه الغيب والشّهادة، فالّذي يستسلم لله يقول في عقيدته إنّه يشهد بأنّ الله الغيب -الّذي هو غيب عن الخلق- يشهد أنّ أدلّة كمال صفاته واستحقاقه لأن أسلِّم نفسي له واضحة أمام عيني.

تخيّل أنّ هناك تاجرًا، واختبر عدّة أشخاص ليساعدوه، إلى أن اختار هذا ليساعده، وبعدما اختبره سلّم له القِيَادة. لماذا اختاره؟ بعد ما اختبره وجده أمينًا، وجده مخلصًا، له صفات جيّدة تصلح لي كتاجر أن أعطيه أموالي يساعدني فيها. إذًا الاستسلام مبنيّ على الثّقة. هكذا في الدّنيا الاستسلام.

العبد يقول لربّه: أنا مستسلم لك يا ربّ، مستسلم لشرعك، ومستسلم لقضائك وقدرك، ومستسلم لقضائك وقدرك يعني راضٍ به. بناءً على ماذا تستسلم لله؟ العبد في نفسه كأنّه يقول: أنا رأيت آثار كمال صفاتك في كلّ شيء، رأيت آثار حكمتك في كلّ شيء، حقًا أنت غيب يا ربّنا لكن آثار كمال صفاتك شهادة بالنّسبة لنا، فما أراه بعين قلبي يجعلني أسلِّم قِيادتي لك سواءً كان في شرعك أو سواءً رضا بما قَسَمْت لي؛ لأنّ القضاء والقدر له وجهان، وجه: أنّه سينزل عليك القضاء والقدر، هذا لا تستطيع دفعه، لكن الوجه الّذي فيه استسلام يعني أنت راضٍ عن الله، أنت قَسَمْتَ لي هذا وأنا راضٍ، أعلم أنّ وصفك أنّك حكيم.

إذًا الاستسلام مبنيّ على عقيدة الإيمان بكمال صفات الله. أيّ أن المستسلم يقول: الله بذاته غيب، وآثار كمال صفاته شهادة. نحن نرى في كلّ شيء آثار كمال صفات الله، فنقول: مَن كملت صفاته يستحقّ أن يكون إلهي الّذي أسلِّم قِيادتي له، فإذا أمرني بأي أمر فسمعًا وطاعة. مثلًا يُقال لك: (الْحَمْوُ الْمَوْتُ)[1] لا توجد مناقشات، فلا تأتي تقل: (لكنّه فتح عينيه وأنا امرأة أخيه، تربّى معنا)، لا توجد أيّ مناقاشات، الحمو الموت أيّ: الحمو الموت. مَن قال (الْحَمْوُ الْمَوْتُ)؟ الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- وهذا شرع مِن الله، إذًا كلّ الأطروحات الّتي ستطرحها باطلة. أنت تقول لنفسك: (أنا استسلمت لربّ العالمين)، فحين يُقال لك: ممنوع كذا، ممنوع كذا، مسموح بكذا، ماذا ستفعل؟ تستسلم. تستسلم بناءً على يقينك أنّه كامل الحكمة، وإذا اعتقدت أنّه كامل الحكمة -سبحانه وتعالى- إذًا أنت مستسلم له، سواءً كان هذا في القضاء والقدر أو كان في الشّرع، إلى أن نصل إلى الأحوال مثل الّتي هي على العالم الاسلامي اليوم، تجد النّاس يشعرون بالآلام لما فيه العالم الإسلامي، ولهم حقّ أن يشعروا بالآلام، كلّ قلب حيّ لا بدّ أن يشعر بالألم، لكن للأسف حين تأتي الألم لا نلتفت على أنفسنا ونقول: في ماذا أخطأنا؟ إنّما يلتفتون على ربّهم ويقولون: لماذا يفعل بنا كذا ونحن أهل الإسلام؟ أنا أنقل لكم ما يقوله السّفهاء مِن أجل أن نعرف كيف سنناقش هذه المسألة. قبل أن نتكلّم عن هذا الأمر نقول: مَن استسلم لله عَرَفَ أن الله مِن أسمائه الحميد، وكان في قلبه مشاعر أنّه محمود على كلّ شيء، وحين يستفتح الفاتحة في كلّ

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٢).

صلاة ويقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}[١] يكون قلبه متيقّن أنّ الله يستحقّ الحمد، هذا المؤمن الّذي يحمل العقيدة الصّحيحة والمستسلم.

الحميد -سبحانه وتعالى- يقدّر على بعض الخلق أقدارًا، واجعلوا قصّة أصحاب الأخدود دائمًا نموذجًا أمام أعينكم. قصّة أصحاب الأخدود نموذج واضح، أليس أصحاب الأخدود الذين أُلقوا في النّار مِن أهل الإيمان؟ نعم. ومَن فَتَنهم؟ الكفار {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}[٢] وماذا حصل؟ مكّن الله الكفار مِن المؤمنين وألقوهم في النّار، ومع ذلك الله -عزّ وجلّ- حميد على فعله، لماذا حميد على فعله؟ لأنّ هذا الفعل له مِن الحِكَمْ الّتي لا يستطيع العقل أن يفهمها، وأقربها لك أن تعرف أنّ هؤلاء في لحظات خرجوا مِن الدّنيا ودخلوا إلى جنة عدن. وهذا الأمر يشبه الاختبار الكبير الّذي سيأتي مع الدّجال، والدّجال هذا كأنّه يجمع فتن الدّنيا كلّها، فهو يأتي ومعه جنة ومعه نار، فمَن دخل جنّته دخل النّار، ومَن دخل ناره دخل الجنة، تمامًا. فتصوّروا كلّ مايحدث في العالم الإسلامي عبارة عن هذه الصّورة، الله حميد على أفعاله، يزكّي النّفوس ويخرج أهل الإيمان مِن أهل النّفاق، ومصالح لا تستطيع عدّها: يخرج أهل الإيمان من أهل النّفاق، ينقل كثير مِن أهل الإيمان الذين كانوا في أماكن بعيدة عن الإيمان فيقرّبهم مِن الإيمان، ويجعل أقدار الخلق موافقة لما قام في قلوبهم، وبعد هذا كلّه: كلّ مؤمن يخرج في أيّ صورة كانت وهو مؤمن، يخرج مِن ضيق الدّنيا إلى سعة الآخرة، وهو حميد -سبحانه وتعالى- في أيّ صورة يخرج بها، وحين تسمع مثلًا أنّ الشّهيد -سواءً كان شهيدًا في المعركة أو شهيدًا بالطّاعون وغيره- وصَبَر، تعْلم أن هؤلاء لا يُفتنون في قبورهم، معناها أنّ الله محمود. هؤلاء هنا فُتنوا فتنة عظيمة، خرجوا مِنها فأراحهم مِن فتنة عظيمة يمرّ بها كلّ الخلق، فهذا كلّه يُحمد عليه، لكن مَن الّذي لا يجد في قلبه الرّضا عن الله وعن حكمته؟ **لا يجد الرّضا عن الله وعن حكمته مَن كانت الدّنيا أكبر همّه**، النّاس الّذين كلّ شيء عندهم الدّنيا، **فحين تكون الدّنيا هي كلّ شيء، مِن المؤكّد أنّه لن يرضى عن الله إلّا حين يأتي الأمر على هواه.**

الشّاهد الآن أن هذا الاستسلام الّذي يكون طول النّهار، يأتي في اللّيل فيقول: هذه نفسي الّتي بين جنبيّ وحصّلت بها الخير، ووقعت بها في الشّر، أنا أسْلمها لك، أسلمت نفسي إليك، وأنا أسلّمها لك أعلم أنّ لك صفات الكمال في رحمتها وفي اللّطف بها وفي معاملتك لها بفضلك الّذي يسبق عدلك مع المؤمنين طمع عظيم؛ لذلك سيأتي في ألفاظ الحديث أنّ الإنسان رغبته ورهبته إلى ربّه. فحين يُسْلم نفسه يُسْلم نفسه وهو واثق مَن ربّه، ويُسْلم نفسه وهو على يقين أنّ هذا

(١) سورة الفاتحة: ١.
(٢) سورة البروج: ١٠

الإسلام له –سبحانه وتعالى– وتسليمه نفسه لربّه –سبحانه وتعالى– تسليم مَن هو راضٍ بالله، وبمعاملة الله، وبجبر الله، وبعطيّة الله، وأنّه –سبحانه وتعالى– ليس فقط لا يظلم عباده بل مِن تمام كماله أنّه يعاملهم –سبحانه وتعالى– بفضله، فهو الغفور الشّكور، يغفر لهم الزّلات ويشكر لهم الطّاعات، أسأل الله –عزّ وجلّ– أن يعاملنا بفضله.

ننتقل الآن إلى الجملة الثّانية وهي (وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ):

يُقال: (ألجأت إلى الشّيء) أيّ: اضطررت إليه، ويُستعمل في هذا الموضع بمعنى الإسناد، أيّ الاعتماد، فالّذي يقول (وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ) كأنّه يقول: اعتمدت عليك.

وهذا معناه أنّ العبد في مثل هذا الموقف يشعر بأمور:

الأمر الأوّل: أنّه في غاية الضّعف. والّذي نقوله عند نومنا كأنّنا نعْكِس فيه يومنا، فكما قلنا (أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ)، ونحن على يقين أنّنا في نهارنا كلّه مسلّمين أمرنا إلى ربّنا، في غاية الاعتماد عليه، كذلك نقول: (وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ)، إذًا سأربّي نفسي وأطفالي على أنّنا وحدنا بدون الله ضعفاء، ولو اجتمعنا جميعًا. وإذًا مِن السّفاهة في تربية الأبناء أن نُشعرهم أنّنا نحن سندهم، وأنّنا نُغنيهم عن الله، بل طوال الوقت سنتّبع سُنة النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– لمّا قال لصاحبه: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}[1] معنا نحن الاثنين. فمِن الخطأ أن تقول للصّغير: لا تخف أنا معك. ومِن الخطأ أن تقول للصغير: أنت تملك قدرات، وأنت تستطيع، وأنت في داخلك عملاق عظيم، وأنت ناجح، وأنت تستطيع! كلّ هذه الكلمات مِن أفسد الكلمات الّتي تُفسد على الصّغير تربيته على الإيمان. بل أُشْعره بفقري وبفقره، نحن مشتركين، أنا وهو مشتركين في الفقر، وأُشعره أنّني أنا وهو لسنا في خوف، إنّما أنا وهو سندنا الله. والعبد كلّما سار في حياته أكثر شيء يحتاجه أن يجد سندًا قريبًا في حالات الضّيق، كلّ ما مَرّ عليه كرب له سند، له ركن شديد يركن إليه، وكلّما احتاج له قريب يسأله ويرجوه، والصّغير أكثر من الكبير في هذه الحاجة لأنّ مخاوفه أكثر، فحين يقول لكِ: نامي بجانبي لكيلا أخاف، وافعلي كذا لكيلا يحصل لي كذا. ماذ نفعل؟ نعيد ثقته الدّائمة بأنّ الله قريب، الله مجيب، الله سندك هنا وفي كلّ موطن الله سندٌ لك.

لا بدّ أن لا نؤمّن أنفسنا ولا صغارنا بشيء إلّا بالله، لانؤمّنهم بأرصدة، ولا نؤمّنهم بقوتنا، ولا نؤمّنهم بتصرفات فَعَلْناها، ولا نؤمّنهم بنور مفتوح، ولا نؤمّنهم بقرب منّا، إنّما نؤمّنهم بوجود الله. لا بدّ أن يكون نهارنا كلّه دائر حول أنّ سندنا الله، فإذا أتينا في نومنا قلنا لربّنا: (وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ) أيّ أنّك أنت سندي، ليس لي سند إلّا إياك.

---

(١) سورة التّوبة: ٤٠

الأمر الثّاني: أنّ الفقير دائمًا يقف عند باب الغني، دائم الوقوف، فلا تأتي فترة ويُعرض عنه. إنّ الضعيف دائم الالتجاء والاستناد على القوي. فدائمًا هذه تحتاج للتّدريب؛ لأنّه يقول لك: (أصحابي يضربونني ويفعلون بي كذا). ونحن دائمًا نرشدهم إلى الحلول العمليّة السّريعة: (كلّم معلّمك، اضربهم...إلخ)، كأنّ القاعدة تقول: إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذّئاب. وكأنّ القاعدة تقول: في هذا الزّمان لا ينفع كذا وكذا. وهذا معناه أنّي أعلّمه أنّنا نحن ضعفاء مِن جهة، وأعلّمه مِن جهة أخرى أنّ القوّة بيد أحد غير الله. في مثل هذه الحالة لا بدّ أن نجمع الأمرين معًا، ماذا نفعل؟ يأتي هو يشتكي لك مِن النّاس كما كان النّبي -صلّى الله عليه وسلّم- يشتكي مِن قريش وما تفعله، وكان ملجأ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في حالات تعدّي قريش أن يجمع بين أمرين: بين الصّبر على ما يفعلون، وبين اللّجوء إلى ربّ العالمين. فهذا لكي يكون رجل حقًّا أو هذه لكي تكون امرأة حقًّا لا بدّ أن تجمع بين الأمرين؛ لأنّ اليوم هناك معلّم أو معلّمة يدفع عنها، وغدًا هناك مثلًا أمّ تدفع عنها، وبعد غدٍ هناك فلان يدفع عنها، لكن ستأتي مِن مصاعب الحياة مواقف لا أمّ ولا أبّ ولا أخّ ولا أحد، إلى أن تأتي لحظة الكرب العظيم والقبض ولا يكون سند العبد إلّا ربّه، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

فالمقصود أنّ ضعف العبد وفقر العبد يجعله لازمًا باب القوي، لازمًا باب الغني، "لازمًا بابه" بمعنى: لا ينفكّ في حال عن الله، لا ينفك أيّ أنه طوال الوقت يطلب من الله: (قوّني، احفظني، ادفع عنّي)، فحين يعتقد أنّ الله هو الّذي يحفظه وهو الّذي يدفع عنه، وأنّ هؤلاء لو اجتمعوا عليه كلّهم يدفعهم عنه الله، الله يدفعهم عنه. فبدلًا من أن تقوّيه بنفسك أو بوالده أو بالنّاس، قوّه بالله، لأنّك اليوم تستطيع أن تفعل لكن غدًا لا تستطيع أن تفعل له شيئًا، وكلّما أظهرت فقري وفقره كلّما زاد ذلّه وذلّي، فأنا وهو فقراء، وأنا وهو سندنا الله.

انظري لهذا الّذي لا ينفكّ عن الاعتماد على الله وإظهار فقره، حين يخرج من البيت يدعو يقول: (اللّهم أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)[1] اللّهم إني أعوذ بك أن أضِل (أنا) أو أُضَل، أذِل (أنا) أو أُذَل، فليست كلّ زلة أنا وقعت فيها أوقعني فيها النّاس، بل أنا أيضًا أزلّ بنفسي، أو أظلِم أو أُظلَم، أو أَجهل أو يُجهل عليّ. فمعنى ذلك أنّني طوال الوقت معتمد على الله. ولو فهم الصّغير هذا الدّعاء جيدًا، واستعاذ بكل مشاعر الفقر، لن يمد أحد يده عليه، يقينًا، كيف يستعيذ بالقوي ثمّ يخذله؟! وإذا حصل ما خالف ذلك فسيجد مَن يدفع عنه، فحتى لو حصل عليه ما يحصل على الصّغار عادةً في مثل هذه المواقف سيجد مَن يدفع عنه، ولا يمكن أن يكون عبد لجأ إلى الرّب -سبحانه وتعالى- فخذله! لا يمكن، لكن هل وهو يقول ونحن نقول: (اللّهم أَعُوذُ بِكَ) هل هذه المشاعر

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٤).

موجودة فعلا عند الاستعاذة؟ كأنّه يقول: أنا فقير، أنا ضعيف، لا أستطيع أن أدفع عن نفسي حتّى شرّ نفسي، أنت ادفع عنّي أن أَضِلّ أو أُضَلّ، أن أَزِلّ أو أُزَلّ، أن أَظلِم أحدًا أو أُظلَم، أيّ أنّه حتى أنا لا أستطيع أن أمنع نفسي مِن أن أظلم أحدًا، بل أنا أستعيذ بك مِن أن يقع منّي ظُلم.

فلو راجعتم جيّدًا الأذكار –سواءً أذكار الدّخول أو الخروج أو كلّ الأذكار– ستجدونها دائرة حول هذا الأمر: الله سند العبد، كلّنا فقراء، كلّنا نشترك في الفقر. فلا تعيّشي طفلك على أنّه بك غني، ولا باسم عائلته غني، ولا بأرصدته غني، ولا بالخلق حوله غني، ولا بالمعلّم الّذي في المدرسة غني، ولا بالمعلمة، ولا بالوسطة، لا نعيّش أنفسنا أنّنا أغنياء عن الله، بل نعيّش أنفسنا على أنّنا فقراء لله، وحين نكون فقراء لله، ستأتي النّقطة الثّالثة الآن:

الأمر الثّالث: الفقير لله غنيٌّ بالله. معنى ذلك أنّه لا يقول: سأذهب للمدرّس في المدرسة الّذي هو من أقربائي فأقول له كذا وكذا وأشتكي له كذا وكذا. نقول له: لا، نحن لسنا بحاجة إلى النّاس، نحن حاجتنا كلّها عند الله. ويقول لك: نذهب عند فلان ونقول له كذا وكذا، أو نجعل فلان يتوسّط لنا في كذا. أقول له: لا، أبدًا، نحن فقراء وضعفاء فقط لله. فلك أن تتصوّر مشاعر العزّة بالله الّتي ستتكوّن، ولا تجد هذا الطّفل يطرق باب هذا، ويشحذ هذا، ويذلّ عند هذا، وينكسر عند هذا، إنّما ستجده عزيزًا، عزيزًا ليس متكبرًا، إنّما عزيز بالله.

إذًا أنا وهو فقراء لله، والفقير لله الضّعيف لله لا ينفكّ عن باب القوي، لا ينفك عن باب الغني، معنى ذلك أنّنا كلّنا فقراء وسندنا الله ولا ننفكّ عن باب الله، فلا يأتي وقت يُغنينا فيه الله فنعطي ظهرنا لله، لا، أنا ألجأت ظهري لله، وسيأتيني في الحديث أنّه لا ملجأ ولا منجا مِن الله إلّا إليه سبحانه وتعالى.

وحين تربّي هذه التّربية حتى لو حصلت لكِ حالة غفلة –والغفلة موجودة فهذا ابن آدم تأتي له مواقف يغفل فيها عن الله– فستحصدي ثمرة تربيّتك، هو سيذكّرك ويقول لكِ: (لا تسألي أحدًا، اسألي الله، الله عندنا، الله قريب، الله مجيب) وهذه حقيقة، والّذي ربّى على ذلك يرى ثماره، يرى حين يغفل الوالدان كيف أنّ الأبناء يكونون أكثر تنبُّهًا لهذه الحقيقة.

ننتقل إلى الجملة الثّالثة وهي (رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ):

سنبتدئ بالرّغبة، ومعناها: الحرص والطّمع مع الحب.

والرّهبة بمعنى المخافة مع التّحرّز، أيّ أنّه يخاف وفي نفس الوقت يرجو.

هناك نقطة تحتاج لمناقشة قبل شرح (رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ). حين يقول الطّفل: (اللّهم أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ) معناها أنّه يثق بالله ويرضى بالله ويسلّم نفسه لله، ومتيقّن من أنّ نفسه الآن ستخرج وتذهب عند الله، هذه النّقطة سنناقشها قبل أن ننتقّل إلى ما بعدها. الأطفال اليوم نتيجة ما يسمعونه ويقرؤونه أو يرونه، دَخَلَتْ عليهم مِن جديد فكرة تناسخ الأرواح، وهي الفكرة القائلة بأنّ الرّوح هذه تنتقل منِ جسد إلى جسد. يأتي الطّفل الصّغير وكأنّه أتى بمعلومة خطيرة فيقول لك: (يا أمّي، روحي قبل أن تأتي عندي، كانت عند أحد ثانٍ)، ويشعر أنّه أتى بمعلومة لا مثيل لها! وهذه الفكرة موجودة فيما يلعبونه ويسمعونه. الشّاهد أنّه حين يقول: (اللّهم أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ) معناها سلّمت نفسي الّتي هي روحي لله، فهذا مكان للمناقشة، حتى لو لم يبتدئ هو بالكلام، وحتى لو لم يقل لك أيّ كلمة حول تناسخ الأرواح، لا بدّ من ابتدائه به، فنقول له: نفسك الّتي خلقها الله، خلقها لك وحدك، ومِن ثمّ حين يأتي النّوم تخرج منك إلى الله، فإذا بقيتَ عبدًا طائعًا كانت هذه في حفظ الله، فكلّ النّفوس –مسلم وكافر– حين تنام تعود إلى الله، فإذا بقيتَ في استقامة كانت في حفظ الله. لا بدّ أن يفهم هذا الأمر وأنّ نفسه هذه تعود إلى بدنه حين يأذن لها الله –عزّ وجلّ– ولا تستهينوا بمسألة الرّوح لأنّها مِن الأمور الّتي يدخلونها علينا، ففي السّابق –قبل عشرين سنة ربّما– لما كانوا يأتون بأفلام كرتون لو تتذكرونها مثل الأسد الملك وغيرها، كان هناك مقطع مِن المقاطع يقول الأسد الصّغير فيه للكبير: مَن هؤلاء الّذين في السّماء –على النّجوم–؟ فيقول له: هؤلاء أجدادنا العظماء. أتعرفون معنى هذه الكلمة؟ تعني أنّ أرواح أجدادهم العظماء طهرت فصعدت في السّماء فأصبحت نجومًا. وهناك فيلم آخر مِن أفلام الكرتون –وأنا أتكلّم عن الشّيء القديم والله أعلم عن الجديد إلّا أنّه لازال موجودًا وبأشكال وألوان– تأتي إلى الشّجرة وتكلّمها وتقول: هذه جدّتي. قد نظنّ أنّ ذلك مِن باب الكناية، لكنّه ليس من باب الكناية، فهم يعتقدون أنّ روح الجدّة الفاضلة أصبحت هنا في الشّجرة، وتكلّمها وتنصحها، ومثله ما تتصوّرون. فحتّى لو لم يقولوا لهم تناسخ الأرواح –ليس شرطًا أن يقولوا لهم هذه الكلمة– لكنهم يدخلون في نفوسهم أنّ الرّوح تنتقل، فلا بدّ أن يفهم هذا الصّغير أنّ روحه خلقها الله له وحده، وأنّه يُسْلمها لربّه الآن في النّوم، ثمّ يُسْلمها لحظة القبض، وأنّه يحاسب عليها. لأنّ تناسخ الأرواح يجرّ إنكار البعث، فهو يعني أنّ الرّوح تنتقل من أحد لأحد، ومن أحد لأحد، ثمّ تنتهي هكذا وتكون في نعيم أو عذاب فقط. فحين نفهّم الصّغير (اللّهم أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ) نقول له: هذه روحك الّتي خلقها الله، حين تنام تُسْلمها إلى الله، فإنْ كنتَ ممن استقام على دين الله حفظك الله، حفظ روحك وهي عنده، وحفظ روحك وهي في بدنك.

- ثمّ بعدما نقول: (اللّهم أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ).

- تأتي الجملة الّتي بعدها: (وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ) سأتكلّم معه عن الفقر، وأنا وأنت فقراء إلى الله.

- (رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ) معناها واضح: أنّ العبد في هذه الحال بين الرّجاء والخوف، أيّ أنّه يرجو مِن الله أن يقبل منه ضعيف عمله، ويرغب إليه بذلك، يرجو ويرغب، ويخاف مِن شرّ نفسه وشرّ أعماله، هذا بكلمة مختصرة، نزيدها أكثر فنقول: إنّ الّذي يقوله عند النّوم هو منهج حياته طوال اليوم، فهو طوال اليوم في مشاعره بين طاعة يرجو مِن الله أن يقبلها، وبين معصية يخشى مِن الله أن يغضب عليه بسببها فيقع أثرها عليه. والصّغير مهما كان عمره لا يصلح أبدًا أن نأخذ له طرفًا واحدًا مِن الطّرفين، فما يصلح أن يعيش حياته وهو في رعب طوال الوقت وربّنا سيعاقبك وربّنا سيعذّبك، ولا ينفع أن نقول له طوال الوقت: ربّنا سيثيبك ويعطيك، فهو خُلِق وفيه الأمرين، بحاجة إلى أن يُدفع إلى الاستقامة بالتّرغيب، وبحاجة إلى أن يُدفع إلى الاستقامة بالتّرهيب، فيُقال له: هذا الّذي تفعله يقرّبك مِن الله، هذا الّذي تفعله يبعدك عن الله، الّذي ستفعله خيرًا ستجني ثوابه لنفسك، والّذي تفعله شرًا ستجني شرّه على نفسك، فكلّ هذه الأساليب لتحصل حالتيّ الرّغبة والرّهبة: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}[١] وهذا يعني أنّ كلامنا طوال الوقت حولك أنت، إن أحسنت اقتربت مِن الله؛ ولذلك يُقال لنا: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}[٢].

الخوف والرّجاء لا يصبح له حقيقة إلّا إذا أصبح في تفكيري وتفكير الصّغير أنّ القرب مِن الله غاية، فأنا أقول له كلامًا يرغّبه في أن يقترب مِن الله، وأقول له كلامًا يخوّفه مِن أن يبتعد عن الله، لكن لا تكون هناك رغبة ورهبة إلّا إذا كان الأمر يدور أصلًا حول القرب مِن الله. وانظر كيف أنّنا نسمّي الطّاعات "قُربة" يعتقد العبد فيها أنّه يتقرّب إلى الله، أيّ أنّه لا يريد أن يكون بعيدًا، يريد أن يكون قريبًا؛ ولذلك في الحديث: (وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا)[٣] انظر لكلمة (تقرّب) "قريب-بعيد" هذه كلّها فيها الرّغبة والرّهبة. نحن مثلا نجعل النّجاح غاية لأولادنا، ثمّ نقول لهم طوال الوقت: لو نجحتم سنفعل لكم كذا وكذا، ولو رسبتم سنفعل كذا وكذا، فهنا نرغّبهم وهنا نخوّفهم، لكن لا يحصل ترغيب وترهيب إلّا إذا كان هناك شيء موجود فيهم، وهم يدورون حوله رغبة ورهبة. فحين نقول له: ارغب إلى الله، ارهب من الله. هو ما علاقته بالله؟ فالمفترض أوّلًا أن نجعل القرب مِن الله غاية، فنقول له: لو اقتربت مِن الله فكلّ شيء يصبح مباركًا لك، يكون سمعك الّذي تسمع به وبصرك الّذي تبصر به ويدك الّتي تبطش بها...إلخ.

---

(١) سورة الإسراء: ٧

(٢) سورة العلق: ١٩

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥).

ما معنى أن تقترب من الله؟ نقول له ذلك، ثمّ نقول له: حين تفعل الحسنات فأنت تقترب، وحين تفعل السّيئات تبتعد، تقترب تبتعد، فهكذا تصبح هناك رغبة ورهبة. لكن لو لم يكن أساسًا مطمعه رضا الله، لو كان تائهًا وطوال الوقت نقول له: سنعطيك كذا ونشتري لك كذا. وأكلّمه دائمًا عن الدّنيا، ثمّ في النّهاية أستنكر فأقول له: لماذا لا تخاف من ربّنا؟ لماذا لا ترجو ما عند ربّنا؟ بالطّبع لن يرجو ما عند ربّنا، فهو طوال الوقت راجٍ ما عندك، ولا يخاف مِن ربّنا إنّما يخاف منك، فالقرب من الله ليست غاية بالنّسبة له؛ لذلك لا توجد هناك رغبة ورهبة لله، فحين نأتي باللّيل نقول: (رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ) لا بدّ أن نعيش النّهار على أنّ القُربة غاية، والقُرب من الله غاية، والّذي نفعله من الطّاعات نرجو به أن نقترب، وكذلك الّذي نحن خائفون منه أن نبتعد؛ ولذلك يقال لنا: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}[1] فنسأل الله -عزّ وجلّ- أن نكون ممّن سجدوا واقتربوا، وأن يقبلنا ويقبل ذرارينا، اللّهم آمين.

جزاكم الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(١) سورة العلق: ١٩.

اللّقاء الثّالث

بسم الله الرّحمن الرّحيم

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله -عزّ وجلّ- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله -سبحانه وتعالى- بمنّه وكرمه أن يجعل هذه الاجتماعات دليل صدق إرادة رضاه -سبحانه وتعالى- وأن نكون ممّن اجتمعوا مِن أجله خالصًا لوجهه، يجتمعون في مجالس يذكُرهم الله -عزّ وجلّ- فيمن عنده، ويقال لهم عندما يقومون: قوموا مغفورًا لكم، اللّهم آمين.

كان حديثنا المقصود بالدّراسة حديث البراء ابن عازب حديث النّوم، شرحنا ثلاثة جمل مِن الحديث، نراجعها اليوم ثمّ نبدأ بالجديد.

كنّا مررنا على قول النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وهو يعلّم البراء: (اللّهم إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ) ولما أتينا إلى كلمة: (أَسْلَمْتُ) تناقشنا في الاستسلام وأنّ هذا هو حقيقة الدّين، حقيقة الدّين الاستسلام، أيّ أنّ المسْلم حقيقةً هو الّذي استسلم. يستسلم لأمرين:

١) القضاء الكوني يعني القدر.

٢) القضاء الشّرعي يعني الشّرع.

فالمفترض أنّ يكون نهاره ونهار والديه اللّذان يربّيانه، ظاهر فيه آثار الاستسلام وعدم الاعتراض: لا على شرع الله، ولا على قدر الله. أمّا غير المستسلم فلا يستطيع أن يمثّل هذا الأمر، فالصّغير الآن مع والديه تمرّ عليهم أقدار صغيرة أو كبيرة، فمثلًا الأم تنتظر سائقها أو مَن يأتي يأخذها فيتأخّر، فتبقى معترضة تتكلّم وتتكلّم، فهذا فعل شخص لم يعرف الصّبر على القضاء، مع أنّه يسير جدًّا، ولا يَفْصِلُك على النّجاح إلّا أن تحبس نفسك فقط، وهذا كلّنا نشترك فيه على حسب قوّة استحضارنا للحقائق، أيّ أنّنا أحيانًا نكون مُستحضرين حقًّا أنّنا نُختبر في كلّ شيء، فيكون قلبنا مستحضرًا هذا، فأيّ شيء يحصل لنا نقول: (رضيت بالله ربًّا، هذا رزقي، هذا ما قُسم لي، الصّبر ينفع صاحبه) نقول لأنفسنا هذا، وأحيانًا تفوتنا هذه الحقائق ولا نستحضرها. التّقصير موجود لدينا جميعًا، جميعًا بدون استثناء، ليس هناك أحد خارج التّقصير، لكن كلّما **قلّ الرّسوب كلّما دلّ هذا على قوّة الإيمان**، بمعنى:

لا يرى منكِ الطّفل طوال النّهار التّأفّف مِن كلّ شيء، وعدم الرّضا عن شيء، ثمّ تجتمعين أنت ووالده أيضًا وأنتِ لا ترضي عن الوالد ولا هو يرضى، فليست هناك في خريطة البيت في اليوم والليلة شيء مرضيّ عنه، وحين ننتهي مِن البيت نخرج إلى البلد! نسير في الشّوارع ليس هناك شيء مرضي عنه أبدًا، لا رضا عن شوارع ولا زحام ولا ناس، ننتهي من الشّوارع والنّاس ونذهب للوزارات، نمرّ مِن عند هذه الوزارة فنقول: (هؤلاء لصوص، هؤلاء كذا) فإذا انتهينا نذهب لوليّ الأمر العام، بالتّدرج! فهذا الصّغير يعيش على أنّه ليس هناك شيء مرضي عنه، ويشعر أيضًا أنّه لو ما كان بهذه الشّخصية سيصبح ذاك الشّخص الّذي ليس له شخصية، أيّ كالّذي ضُحِك عليه ويستطيعون أن يقودوه، فحين تقول له: (ارضَ بما قسم الله) يقول: (أنت تعطيني مخدّرات!) فالرّضا بما قسم الله صار في ثقافة اليوم "مخدّرات!" عند مَن لُوثت أفكارهم وأنتجوا لنا ما ترون؛ لأنّ الإرهاب لم يأتِ قفزة واحدة، إنّما هذا الإرهاب ما أتى إلّا بعدما تسمّمت أفكار القوم بعدم الرّضا عن أيّ شيء، وعدم الرّضا بأيّ شيء. فحين صار هذا انقلب الشّباب على مجتمعهم، أصبحوا بدلًا من أن يكونوا عنصرًا في إصلاحه، أصبح تخريبه إنجازًا عندهم، وإلّا فالعقل يقول: لو وجدت كفارًا في طريقك -ليسوا مسلمين إنّما كفار- وظيفتك أن تدعوهم إلى الله -عزّ وجلّ- وظيفتك أن تبذل جهودك معهم لإصلاحهم، وليست وظيفتك أن تقتلهم! لكن مِن أين جاء هذا؟ جاء نتيجة عدم الاستسلام! فنحن نحصد نتيجة ما فعلنا!

ثقافة عدم الرّضا، وثقافة عدم الإستسلام لله ولقضائه وللأرزاق، أورثت أن النّاس لا يرضوا عن أيّ شيء. فتصوري نفسك مع صغيرك وتصوري نفسك مع والده، هي نفس الثّقافة، تعطيه مصروفًا لا يرضى عنكِ، تشتري له لعبة لا يرضى عنكِ، تذهبي به ليتمشّى وبعد هذا كلّه يقول لك وهو في التّمشية: (أنا مكتئب) فترجعي به. عنده مجموعة طلبات، تشتريها، ينقص عليه شيء، فيبقى شاعرًا بعدم الرّضا. من أين أتى بهذا؟ منكِ! والده يفعل لكِ كذا فلا ترضين، يشتري لكِ كذا فلا ترضين، يذهب بكِ لكذا فلا ترضين، فهو تعلّم ثقافة عدم الرّضا، وعينه تراكِ لا ترى أن الرّزق مِن الله، كما أن عينكِ ترى والده ولا ترى أن الرّزق مِن الله، وهكذا.

"الاستسلام" مفهوم واسع عظيم لا بدّ أن نعيش تحت ظلّه، لكن نحن طوال النّهار غير مستسلمين، ثمّ حين نأتي لننام نقول: (اللّهم إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ)! نسأل الله -عزّ وجلّ- أنّنا حين نقولها تكون سببًا لأن نكون مستسلمين حقًّا. المقصود أن هذا أول وأهم المفاهيم الّتي أتت في الحديث، بل هي مِن أهم المفاهيم في الحياة: نرضى بقضاء الله، وبما قسم الله، ونرضى بشرع الله. فعدم الرّضا بقضاء الله جَرّ علينا عدم الرّضا بشرع الله، فانظروا للمجتمع لتتصوّروا كيف أتى الشّذوذ الفكريّ على الطّرفين:

- **الطّرف الأوّل**: غير راضٍ عن أيّ شيء في مجتمعنا، وطبعًا أكثرهم يكذبون، يقولون لك: (نحن لسنا راضين عن دين القوم) وهم غير راضين على دنيا القوم! في الحقيقة.
- **الطّرف الثّاني**: تسرّبت المسألة مِن انتقاد النّاقص في الدّنيا إلى أن وصلنا لانتقاد الشّرع، انتقاد الدّين، إلى ضرب الدّين بعضه ببعض، إلى أن وصلنا إلى الطّرف الثّاني الخطير وهو أن يصل الشّباب إلى التّعدي على الله، وعلى رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– وعلى دين الله.

إلى أن وصل الأمر في ديار الإسلام الّتي يأرز الإسلام إليها، الّتي تَرْفَع راية التّوحيد، يخرج مِن بعض أبنائها –وإن كانت المسألة في حكم النّادر لكنها موجودة فلا نضع رأسنا في التّراب– الإلحاد! مصيبة عظيمة، مصيبة حقيقيّة لا بدّ أن نشعر بها، لكن ما الّذي درّبهم أن يصلوا إلى ذلك؟ عدم الاستسلام، وعدم الاستسلام في الأصل أتى ثقافة موافقة لما في النّفس الأمّارة بالسّوء والشّيطان، أيّ أنّ أهل الحرّيات الّذين يتكلّمون عنها مِن الخارج، صادف كلامهم عن الحريات نفوسًا فيها أصلًا عدم القدرة على الاستسلام؛ لأنّه مِن أجل أن تستسلم لا بدّ أن تجاهد، فلمّا يقول لك أحدّ: (أنت حرّ، انتقد أيّ شيء) يوافق هذا هواك ويوافق الشّيطان، فمِن أجل أن نَحْمِلَهم على الاستسلام لدين الله ومِن أجل أن نَحْمِلَهم على الاستسلام لقدر الله، هذا يحتاج إلى مجاهدة، أمّا ما يوافق الهوى ويوافق الشّيطان هو أن نتركهم منفلتين ينتقدون ما يريدون وليس عندهم حدّ للانتقاد. فكوننا في نهارنا لا ندرّبهم على الاستسلام معناه أنّنا خسرنا أثر هذه الجملة الّتي يفترض أن تكون في حياتنا.

إذًا المفهوم الرّئيسي الّذي نأمل أن نصل إليه مِن: (اللّهم إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ) هو الاستسلام، ومعنى ذلك أن الطّفل في كلّ نهاره سيسمع أنّك لا بدّ أن تسلّم أمرك لله، استسلم لله، ارضَ بقضاء الله، هذا دين الله، عليك أن تَقْبَل دين الله، يعيش بهذه الصّورة طوال الوقت، ثمّ حين يسمع: (اللّهم إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ) سأقول له كلمتين تربط هذه الجملة بالذي عاشه طوال النّهار. أمّا إن كان لا يسمع عن الاستسلام، وفقط نقول له: ما دينك؟ الإسلام. فما هو الإسلام الّذي هو دينك! ولا يفهم معنى الإسلام والاستسلام لقضاء الله. فماذا يُنتظر منه؟!

ننتقل إلى جملة (وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ):

التفويض قريب مِن معنى ألجأت ظهري، وهو بمعنى التّوكل، والّذي يفوّض أمره لله لا بدّ أن يَعْرِف عن نفسه شيئًا، ويَعْرِف عن ربّه شيئًا، وهذه المعرفة عن نفسه وعن ربّه يبدؤها هو الكبير الّذي يريد أن يربّي، ثمّ ينقلها في حياته كلّها إلى صغاره:

- المفوِّض لله يَعْلَم عن الله كماله وجلاله ورحمته ومُلكه وسلطانه وحكمته -سبحانه وتعالى- يَعْلَم أنّه قريب وأنّه مجيب وأنّه -سبحانه وتعالى- ودود يحبّ عباده وإذا تقرّبوا إليه تقرّب إليهم، فمِن جهة المُلك له مُلك كلّ شيء، مِن جهة الحكمة له كمال الحكمة، ومِن جهة التّدبير فهو المدبّر لكلّ شيء، أيّ أنّه: مالك كلّ شيء، مدبّر كلّ شيء، له الحكمة في كلّ تدبير. ثمّ أنّه يسمعك، يعني أنّه -سبحانه وتعالى- وسِع سمعه الأصوات...وهكذا، فيعرف عن ربّه كمال الصّفات. **وماذا يحصل عندما تعْلم عن ربّك كمال الصّفات؟ يحصل من وراء ذلك الثّقة بالله: أنّ كلّ حاجاتي سأضعها عند باب الله**. فتعْرف عن الله كمال الصّفات.
- وتَعْرِف عن نفسك نقص الصّفات: الضّعف، العجز، نقص الحكمة، نقص القدرة، نقص المُلك.كلّ صفة نقص تَعْرِفها تمامًا عن نفسك. وهذه الصّفة العجيبة لا بدّ أن نَفْهَمْها جيدًا عن أنفسنا، ربّنا جعلنا ضعفاء، طوال الوقت لنا حاجات، نجوع نريد أن نأكل، نعطش نريد أن نشرب، ننتهي مِن هذا كلّه نريد أن نُخرج هذا الضّرر مِن أبداننا، ثمّ نريد أن ننام، ونريد ونريد، طوال الوقت نحن محتاجون، **فأنتَ تُنْشَأ لك الحاجات فتُنشِئ أنت أمامها: العبادات، الطّاعات، المناجاة، السّؤال، الفقر إليه، الطّلب منه، الوقوف عند بابه، العبودية. بحيث أنّك لا تترك باب الله أبدًا.**

أنتَ عند باب الله دائمًا؛ لأنّك عندك حاجات طوال الوقت، ولا تستطيع أن تغطّي حاجاتك، وطوال الوقت تعرف أنّه هو مَن يعطيك حاجاتك، فلا تغادر باب الله، لا تُدْخِل أبدًا هذه القناعة المستوردة: ساعة لقلبي وساعة لربّي! قلبك أصلًا لا يصحّ ولا يكون ولا حتّى بدنك يصحّ إلّا حين تقف عند باب ربّك، فكلّ ساعاتك عند باب ربّك، كلّ ساعاتك تناجيه: أعطني، أطعمني، اسقني، اكسني، اِئوني[1] اجبرني استرني ادفع عني احفظني احفظ ذريّتي. طوال الوقت أنت لك حاجة عند الله، ثمّ أنّ هذا مِن لذائذ العبادة: أنّك أول ما تحتاج، مجرّد أن يمرّ خاطر على قلبك، مباشرة تفزع إلى الصّمد، مباشرة، لا تحتاج أن تلف ولا تدور ولا تسأل ولا أيّ شيء؛ ولذلك ما أطيب أن نذكّر أنفسنا دائمًا أنّ لنا

(١) معنى "آواه الله" أي: قبله وقربه، وقيل: معناه رحمه أو آواه إلى جنته أي: كتبها له.

أحد واحد، والأحد الواحد صمد، تصمد إليه في كلّ حاجاتك، كأنّك بعد كلّ صلاة تقول لنفسك: اطمئن، اطمئن، فحاجاتك كلّها عند الصّمد، والصّمد قريب ومجيب، وله كمال الصّفات سبحانه وتعالى.

فإذا كان العبد يعرف مَن هو الله، ويعرف صفاته، لن يقصّر أبدًا في أنّه كلّما احتاج شيئًا فوّض إلى الله الأمر فيه، مباشرة. فوّض إلى الله يعني خرج من حوله وقوّته إلى حول الله وقوّته. وكم تمرّ علينا هموم خصوصًا حين نأتي ننام تأتينا الهموم: غدًا ماذا سنفعل؟ غدًا ماذا سيكون؟ حتى لو ما عندك ضيف غدًا تهتمّ به، يقع في قلبك الهمّ: ماذا سأفعل؟ فحين تقول: (وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ) يعني تفاصيل الأمر الّذي أعيشه أفوّضه إليك. هذا الّذي نقوله عند النّوم هو ما نعيشه في يومنا كلّه، فنحن نعيش طوال اليوم أنّه كلّما خطر على بالي خاطر أو كلّما ظهرت لي حاجة، فإنّ أسبابها مُلك لله؛ لأنّه قد يأتي سؤال: متى نأخذ بالأسباب؟ نقول: الأسباب مُلك لله، فالّذي يفوّض الأمر لله يلجأ بكلّيته إلى الله، يطلب مِن الله أن اعطني الأسباب، فالله مالك الملك يُعطي الأسباب، والله مالك الملك ينفع بالأسباب، والله مالك الملك يعطيك نتائج الأسباب. وانظر ماذا نفعل نحن لهموم الصّغير؛ لأن الصّغير همومه على قدره، نقول له: ما بك حزين؟ ما الّذي ينقصك؟ يقول: أريد حلاوة، أو غدًا المعلم طلب منّي كراسة. كلّها أشياء تشعر أنّها تحت يدك، غالبًا نشعر أنّها تحت يدنا، فماذا نفعل؟ نقوم بعمل خطأ خطير، نتدخّل بينه وبين الله، بدلًا مِن أن ندرّبه على اللّجوء إلى الله، نقول له: لا تحمل همًا سآتي لك بها، سأفعل لك. وإذا كبرت حاجاته أقول له: آخر الشّهر نأتي بها، فليس هناك كلام حول تفويض الأمر لله، مع أنّه في الحقيقة كلّما أتت همومه كلّما كان الصّواب أنّ همّه مهما كان صغيرًا يطلبه مِن الله، يفوّضه إلى الله، وهو يفهم وأنت تفهّمه أنّك تفوّض إلى الله، والله يعطيك في الوقت المناسب، ويعطيك أحسن ممّا طلبت؛ لكيلا يتعلّق أنّه لا بدّ أن يجد ما يريد دائمًا، لكنه سيجد أحسن ممّا يريد في الوقت الّذي لا يتصوّره، لكنّه سيأتيه أفضل ممّا يريد.

المقصد أنّ التّفويض هذا تدريب، فنحن في اللّيل نقول: (وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ) وفي النّهار نعيش (وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ) أعيشها بنفسي وأجعله هو أيضًا يعيشها. كلّما ظهرت حاجة كلّما قفز القلب يطلبها مِن الرّب، وعَرَفَ أنّه لا يستطيع أن يقضي حاجته إذا لم يقضها له ربّه، ثمّ يكبرون قليلًا ويصبحون في الصّف الرّابع أو في الصّف الخامس أو في المتوسّط، فتقول له: نفوّض أمرنا لله. فيقول لك: لكن علينا أن نأخذ بالأسباب. فيصبح فصيحًا وعنده كلام يقوله! فأوّل ما يفصح ويبدأ يفهم الكلام حول الأسباب –وحتى قبل ذلك– لا بدّ أن نُدخل عليه مفهوم اسم الله الأوّل والآخر، فحين يقول لك: أنا فوّضت أمري إلى الله لكن أريد الأسباب الّتي توصلني إلى مرادي. فأسأله حينها سؤالًا: هل الله أوّلًا أم الأسباب؟ مَن الّذي يعطي الأسباب؟ لا بدّ أن يخرج بإجابة أنّ الله هو الأوّل الّذي يأتي بالأسباب؛ إذًا أوّل ما أحتاج أطلب الأوّل

الّذي ليس قبله شيء، ثمّ الله هو الآخر الّذي يعطيني نتائج الأسباب، ثمّ كلّما كبر وبدأ يسأل ويريد أن يفهم أو حتى لا يريد أن يفهم إنّما يسأل ويناقش ويجادل، حينها أضرب له أمثلة إلى أن أصل معه إلى الآيات العظيمة الّتي تصف له حقيقة الأسباب وعلاقتنا بها، كقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[١] مِن الضّروري أن يفهمها جيّدًا خصوصًا أنّه في مادة العلوم يدرس "الحرث والبذر والمطر" فاسأليه: هذه الحبّة مِن أين لنا بها؟ الأرض الخصبة مِن أين لها بها؟ المطر مِن أين لنا به؟ ثمّ الحول والقوة لتحْرُث مِن أين لك به؟ ثمّ بعد اجتماع كلّ هذه الأسباب الّتي يهبها الله -عزّ وجلّ- لخلقه، مَن فالق الحبّ والنّوى؟ المُزارِع وضعها في الأرض لكن مَن يفلق الحبّة في داخل الأرض؟ مَن مُخرج الثّمرات عندما تكبر؟ لا بدّ أن تبقى هذه الأسئلة تدور في ذهنه قبل أن يخطف قلبه الباطل.

فالمقصد الآن (وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ) بمعنى: توكّلت عليك، وكلّما خطر في بالي حاجة وضعتها بين يديك. هذه الأحوال الّتي يعيشها الإنسان طوال نهاره، يأتي في ليله كأنّه يؤكّد عليها، ولماذا في اللّيل خاصة؟ اللّيل وقت الهموم والتّفكير، اللّيل وقت تفكير النّاس في همومهم، حتّى الصّغير هذا، همومه على قدره لكن عنده هموم، خصوصًا لو اهتمّ غدًا بمعلّمه الّذي يمكن أن يتعدّى عليه أو بأصحابه الّذين يمكن أن يفعلوا له كذا. فالقاعدة تقول: كلّ حاجة تحتاجها لا بدّ أن تعرف أنّك ضعيف لا تستطيع تحصيلها بنفسك، وأنّ الله هو القوي الّذي يحصّلها لك، وأنت يا ضعيف اطلب مِن صاحب القوّة القوي، اطلب منه الحول والقوّة.

وليُعْلم أنّ أفلام الكارتون وغيرها، سمّمت الفطرة من عند هذه المسألة ودَخَلَت بيننا وبين أبنائنا في عقيدتهم، فأصبحوا يرون الكرة السّحرية الّتي إذا أرادوا شيئًا طلبوها أو رموها، وأصبحوا يرون ذاك الّذي ينادونه ويأتيهم، وكلّ يوم خرافة من الخرافات! وننظر لها على أنّها براءة طفولة! والحقيقة أنّها تلويث للعقيدة، فهذا القلب السّليم فيه فطرة سليمة، وأوّل ما ترشده أين الطّريق يذهب، فإذا قيل له إنّ هذا الوحش هو أقوى الأشياء، أو أنّ هذا الّذي يصورونه بأيّ صورة يستطيع أن يفعل أيّ شيء، فتصبح نتيجة ذلك أنّ أوّل ما تكلّمينه عن القوّة والقوي، عقله لا ينتقل إلى الله إنّما ينتقل إلى هذا الّذي رآه. فستصبح بحاجة لأن تُغيّر وجهة نظره وتقول له: هذا مجرّد كارتون، وهذا ليس بشيء، وهذا وهذا، ثمّ تقول له: والحقيقة أنّ الله هو القويّ. فنحن في غنى عن هذا كلّه، الإشكال أنّنا جميعًا نقنع أنفسنا أنّها فترة طفولة وغدًا يكبر ويزول، لكنّه يزول إلى بلاء جديد، فهو سينتهي مِن أفلام الكارتون أنّها قوية وينتقل في فترة المراهقة إلى الأفلام الحيّة، وينتهي مِن ذلك فيبدأ يعظّم نفسه وهو يستطيع وهو عنده القوّة وهو عنده القدرة. وهذه اللّعبة واضحة: من أفلام كارتون إلى الأفلام

(١) سورة الواقعة: ٦٣-٦٤.

الحيّة إلى تعظيم الذّات إلى الانهيار والأمراض النّفسيّة والسّقوط والوقوع وعدم النّجاح والفشل. لكن وهو صغير صاحب فطرة سويّة، نقول له: ليس لنا ركن شديد إلّا الله.

ولذلك تأتي الجملة وراءها مباشرة في الحديث: (وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ) أي كلّ أمري فوضّته إليك، والصّغير مهما كان صغيرًا لكن له هموم، فكلّ همومه يضعها عند باب الله، وعندما يقول لك عن الأسباب، لا تنسي أن تقولي له: الله الأوّل الّذي يعطينا هذه الأسباب، الله الآخر الّذي يعطينا نتائج الأسباب، ثمّ زِيديه مشاعره في تفويضه الأمر لله، قولي له: يعني علاقتك مع الله أنّه الرّكن الشّديد الّذي تستند إليه؛ ولذلك في الحديث: (وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ) كما يُلجِئ الإنسان ظهره إلى ركن شديد، فكأنّه يقول: الله هو الرّكن الشّديد الّذي إذا فزعت إليه لن يخذلني. وهو في صغره يظنّ أنّه لو كبر سيصبح بعيدًا عن المخاوف، ولا يدري أنّ الخوف مِن أكثر الأشياء الّتي تحيط بالنّاس مهما كبر سنّهم، وربّما حين يكبرون تصبح مخاوفهم أكثر، إلّا أنّ الخوف تتنوّع أشكاله، والصّغير لا يشعر بالمخاطر مثلما يشعر الكبير بها، فالخوف يكبر لا يصغر، والصّغير يظنّ أنّه لو كبر سيذهب الخوف، ونحن كلّنا نعرف أنّه كلّما كبرنا كلّما زاد الخوف، لكن تغيّر نوعه فقط، وأصبح عندنا إحساس أكثر بالمخاوف. انظر كيف تفرح الشّابّة الصّغيرة بالزّواج بينما الأم يكون عندها هموم لزواج ابنتها، أيّ أنّه مع فرح الأم لزواج ابنتها لكن تكون هناك مخاوف. الشّابة مخاوفها أقلّ لأنّ تجاربها أقلّ، أمّا الأمّ فتهتم بكذا وتخاف مِن كذا وعندها تفاصيل كثيرة تخاف منها، والشّابة لا تعرف هذه الأشياء فمخاوفها محدودة. فالمفترض أنّي أفْهَم أنا وهو أنّ الخوف لازال خوفًا وسيبقى الإنسان يخاف، لكن كلّما خاف فوّض الأمر إلى الله، وألجأ ظهره إلى الله، استند إلى ركن شديد، بالضّبط مثل موقف النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- مع أبو بكر رضي الله عنه في الغار. في البداية أبو بكر رضي الله عنه خاف. هل يُتصوّر أنّ أصحاب الإيمان لا يخافون؟ يخافون مثلما يخاف النّاس، ألم يخرج موسى -عليه السّلام- خائفًا يترقّب؟ لكن ما الفرق بين أهل الإيمان وغيرهم؟ انظر إلى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لم يقل له: أنا معك لا تخف، إنّما قال: {إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}[1] معنى ذلك أنّي أنا والصّغير تمرّ علينا مخاوف، لا بدّ أن تمرّ، ولا بدّ أن يفهم أنّ المخاوف تبقى موجودة، لكن مادام الله معنا إذًا سيُنزل علينا الأمن، إذًا سيُفرّج علينا، إذًا سنخرج مِن هذا الكرب، إذًا سنعرف ما الطّريق الصّحيح. نخاف فنفزع إلى الله، لا نخاف فنزيد بعضنا خوفًا بأن نجعل بعضنا يُؤمّن بعض!

☒ لا نعيش معه على أنّه لو خفت فأنا أمانك!

(١) سورة التّوبة: ٤٠.

✓ لا بدّ أن نعيش معه أنّه لو خفت فالله أماني وأمانك، وهو الرّكن الشّديد، وهو الموصوف بصفات الكمال، وهو القريب والمجيب والعليم والحكيم والحفيظ، إلى أن يبقى ذكر الله سببًا لطمأنينة النّفس.

وهذا سينقلني في مناقشة سريعة لما نسمعه في قول النّاس: (قلنا الأذكار وبقينا خائفين، ما اطمئنت نفوسنا) والله في كتابه يقول: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} ما هو الشّرط الأوّل؟ أنّهم **آمنوا**، ثمّ تطمئن قلوبهم بذكر الله: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}(١).

إذًا ما هي القلوب الّتي تطمئن بذكر الله؟

- قلوب المؤمنين الّذين عرفوا مّن هو الله.
- وقوي في نفوسهم التّصديق بصفات الله.
- وعاشوا هذه الصّفات مرّة بعد مرّة.

أي أنّهم في كلّ مرة عاشوا كيف يُؤمّنهم، كيف يرزقهم، كيف يحفظهم، وكلّما زادت معايشتهم زاد إيمانهم. شخص مثلًا مهموم، يقول: عليّ دين، أو سيأتيني ضيف، أو كذا وكذا، فالأوّل مهموم والثّاني يقول له: ادع الله وربّنا سيعطيك. فأوّل ما يُذكّر بالله تحصل الطّمأنينة لقلبه، لكن لماذا نسي؟ نسي لأنّ مِن طبيعة الإنسان أن ينسى، غفل لأنّ مِن طبيعة الإنسان أن يغفل، مِن الطّبيعي أن يغفل الصّغير ويغفل الكبير، ليس هناك أحد فوق ولا يغفل، لا بدّ أن تحصل له الغفلة، لكن انظر للغافل أول ما يُذكّر بالله. أو أوّل ما يحصل في نفسه مخاوف، مثلا يخاف على ابنه، يخاف على صغيره، فنقول له: الله الحفيظ. فيكفيه هذا الاسم! يكفيه أن يتذكّر أنّه في حفظ الله، فالمؤمن هو الّذي ينفعه أن تذكّره بالله، لكن ضعيف الإيمان مهما قال الأذكار ومهما ذَكَرَ الله، سينفعه بالتأكيد لكنه ليس بمقدار نفع المؤمن قوي الإيمان، لكن إذا ذَكَرَ غير المؤمن –يعني المنافق– إذا ذكر الله هل ينفعه؟ لا ينفعه لأنّ الشّرط في الآية {الَّذِينَ آمَنُوا} لا بدّ أنّهم آمنوا، يعني عرفوا مَن هو الله وصدّقوا صفاته وعاشوا آثار هذه الصّفات.

نفترض بحكم أهل الدّنيا هذا المثل: شخص مثلا له رصيد كبير من المال أو من الذّهب، وخبّأه في مكان، ونسيه مثلًا. خبّأته عند أمها، وتأتي تحكي لأمها تقول لها: (عندي أزمة ماليّة وليس لديّ شيء أبيعه، وبحثت ولم أجد في بيتي شيئًا

(١) سورة الرّعد: ٢٨.

أبيعه). فأمها تذكّرها بالمخزون عندها، فهي تفرح وتُشرِق نفسها لأنّ هذا المخزون عند أمها منسي ووجدته. انظر كيف يكون حال النّاس حين يُذكّرون بأرصدتهم، يُذكّرون بأموالهم، يُذكّروا بذهبهم؟ يفرحون مباشرة لأنّ الفرج جاء، والمؤمن أعظم مِن هؤلاء، تأتي له لحظات كرب ولحظات ضيق ثمّ يغفل كما يغفل كلّ النّاس، ثمّ يقول له أحدهم: (ربّنا يحفظنا، ربّنا الحفيظ). فيستيقظ ويقول: (نعم، ربّنا الحفيظ ما بي)؟! مَن الّذي يفعل مثل هذه الأفعال؟ المؤمن الّذي في قلبه رصيد مِن معرفة الله.

أهل الدّنيا يفرحون بوجود دنياهم وأهل الإيمان يفرحون بذكرى مولاهم. لا بدّ أن نعرف الفرق بيننا وبين الخلق، ولا بدّ أن يظهر هذا الفرق وأن يشعر صغارنا به أيضًا، فرق كبير أن تكون طمأنينته بالله أو أن تكون طمأنينته بالأرزاق، بالأموال، بالأرصدة. عندما يهدّدنا دائمًا أهل الكفر ويخيفونا، وهم شغلهم معنا التّخويف، نصبح ونمسي وهم يخيفونا، فمثلًا يقولون لنا: (أنتم يا أهل الجزيرة العربيّة في صحراء، وستحتاجون ماء، وبعد عشر سنين سيصبح عندكم قحط...) ويخيفوننا. هذا الكلام لنا عشرين سنة وهم يقولونه لنا، والله يغيظهم. حين يأتي أحد يقول لك هذا الكلام ويخيفك بالماء، ماذا تقول وأنت مؤمن؟ مِن أين يأتي الماء بتفكيرهم هم؟ مِن السّحب، مِن الأمطار، مِن الرّياح الموسميّة، وكلّ هذا الكلام الّذي يقولونه. وأنت إيمانك ماذا يقول؟ يقول إنّي لو استغثت بالله يغيثني! بيننا وبين المطر أن نصلّي صلاة الاستسقاء، هذا ما بيننا وبين المطر، دعوة مؤمن صادق، هذا ما بيننا وبين المطر، ولا أزمة ماء ولا نذوق أزمة الماء إذا كان الإيمان في القلب. فأوّل ما يذكّرك أحد بالاستسقاء تقول: هؤلاء لا يدرون شيئًا عن الدّنيا، هؤلاء عمي لا يعرفون من أين يأتي الماء، الماء يأتي مِن عند مالكه، مِن عند الله.

وسنعيد على أنفسنا: أهل الإيمان يغيظون أهل الكفر {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[1] يغيظهم أنّنا في رفاهية مِن شأننا، ونعيش أفضل عيشة بفضل الله، ونعبد ربّنا، وتفرّغت أوقاتنا لذلك، ونصرف أموالنا. وهم ليلًا نهارًا يصنعون ويكدحون، ونحن تنزل في أسواقنا وبكلّ سلاسة نملك ما لا يستطيعون أن يملكوه. فمِن أجل أن يقهرونا ويقلّلوا مِن قيمتنا يقولون: أنتم العالم الثّالث. الثّالث أو الخامس غير مهمّ! المهم أنّنا أهل السّيادة وأنتم الخدم بالنّسبة لنا، لكن انظر كيف الإصرار على الهزيمة النّفسية. الشّاهد الآن أنّهم كلّ ما أرادوا أن يخوفونا هم والشّياطين، ما دورنا نحن؟ أفوّض أمري إلى الله، أتذكّر مَن هو الله، نحن في حفظ الله، نحن في رعاية الله، نحن تحت أمر الله، نحن عبيد لله، ما ينزل مِن قضاء الله نحن راضين، أعطانا ليس لأنّنا أهل إنّما لأنّه كريم، ومنع عنّا لأنّه حكيم، وكلّ ما يفعله بنا فنحن له عبيد، مؤمنون

(١) سورة البروج: ٨

راضون بما يقسمه لنا. فهذه المشاعر تجعل الإنسان يشكر على عطيّة الله، لكن في الحقيقة الّذي أصاب العالم الإسلاميّ كلّه مِن أوّله إلى آخره مع كثرة الخيرات فيه ومع وجود الأرض الخصبة في كثير من الأماكن أنّنا لا نشكر مع إنّ الله قال: {لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}[1] فنُزِعت البركات بسبب قلّة الشّكر، وهذه السّياسة الّتي تحدث لنا: تقليل قيمة كلّ شيء عندنا. والحقيقة أنّ الله آوانا وكفانا ومِن كلّ ما سالنّاه –سبحانه وتعالى– أعطانا، ونكذب على الله لو قلنا: ينقصنا شيء، ثمّ الأشياء الصّغيرة نجعلها هموم كبيرة! وحين تقارن نفسك بكلّ النّاس تجد أنّك في نعمة، كيف أنّك تعيش في أمن وأمان وتُطعَم، وإذا ليس عندك طعام فعندك جار يعطيك، وعندك هذا يقرع بابك، والأرزاق تأتينا مِن كلّ مكان، ثمّ نشتكي إلى الله نقص أشياء بسيطة! أين {لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}؟ لكن انتقاد لكلّ شيء، كأنّ العبد يرى أنّه حسيب نفسه، إنّما الله حسيبنا كلّنا، كلّنا نلجئ ظهرنا لله، الله هو ركننا الشّديد. الشّاهد أنّك لو عشت نهارك بهذه الصّورة سيعيش طفلك نهاره بهذه الصّورة: أنت تخاف هو يخاف، أنت تلجأ إلى الله أوّل ما تأتيك المخاوف هو سيقلّدك تمامًا في اللّجوء، أنت تكثر من الدّعاء "يا الله" وهو سيكثر من الدّعاء "يا الله". فطفلك عبارة عن انعكاس تام لما تعيشه على الحقيقة، ليس هناك تمثيل في التّربية، ليس هناك مجال للتّمثيل، ما ستعيشه أنت هو سيعيشه.

نأتي إلى جملة: (رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ):

وقفنا عند هذه الجملة سابقًا، ومعناها المجمل أنّ الّذي يُلجئ ظهره إلى الله عنده شعوران لا ينفكّ عنهما أبدًا: الرّغبة فيما عند الله، يعني اعتمدت عليك وأنا طامع فيما عندك، وهذا لا يمكن أن يكون إلّا ممن يعرف مَن هو الله، وأنّ مُلك السّماوات والأرض عنده.

كلّ رغائبك عنده، كلّ ما تحتاجه عند الله، كلّ ما تريده عند الله، نقول هذا للصّغير بكلام سهل، نقول له: حين نعتمد على الله نحن راغبون فيما عند الله؛ لأنّ عند الله كلّ شيء نريده بالتّفصيل. أحيانًا بعض الصّغار نتيجة أنّهم يسمعون ويرون أو تحصل لهم مواقف في المدارس، يكون عند أحدهم خوف من أن يفقد أحد والديه مثلًا، فتقولي له: حفظي وحفظ والدك ليس بشأني ولا بشأنك، وحين تنام بجانبي لن تستطيع أن تحفظي ولا تستطيع أن تنفعني ولا أنفعك، لكن اعلم أنّ رغبتك الّتي تريدها عند الله، فلا تجعلني قبلتك أنا إنّما اجعل قبلة قلبك هو الله، واطلب من الله أن يحفظ عليك محبوبك، يحفظ عليك والديك، يحفظ عليك ما تريد. هناك فرق بين أم تقول لأولادها طوال النّهار: والله أخرج وأترككم، وإن شاء

(١) سورة إبراهيم: ٧.

الله أموت وأرتاح منكم! هذا كأنّه مسلسل رعب للصّغار حقيقةً؛ لأنّ فقدك بالنّسبة له رعب، فالمفترض أن تؤمّنيه مِن هذا الخوف بعقيدته في الله، لا أن تخيفيه مِن أجل أن تهدّديه! وهو طوال النّهار قد لا يخاف، تقولين له هذا خلال النّهار وهو ينظر لكِ بلا اكتراث، لكن في اللّيل تجتمع عليه المخاوف، في اللّيل حين تحصل حالة من الهدوء تأتيه الأفكار. وطوال النّهار نحن نخيفهم بهذا وهذا، وكلّ شخص عنده سياسة تخويف مخترعة، ثمّ المشكلة أنّ كلّ سياسات التّخويف لا تأتي بنتيجة! عندما يريد أن يخرج فكلّ ما تخيفينه به يذهب، وحين يعود وينام هذا الكلام الّذي قلتيه كلّه يجتمع وقت النّوم خصوصًا وأنّ الشّياطين تأتيه في هذا الوقت تخيفه، فالمقصد أنّ عملنا معهم يكون على خلاف ذلك، المفترض أن نؤمّنهم بالله، لا أن نخيفهم. حين تخيفينهم يفقدون الثّقة بالله، لكن كلّ خوف المفترض أن نضعه عند باب الله رغبة إلى الله، المفترض أن تقولي له: كلّ ما تحتاجه عند باب الله، الحفظ والرّعاية والعناية والوصول إلى ما تريد بتفاصيله، والخوف الحقيقي من أن يغضب الله عنّا، أو يحرمنا، أو يُغلَق علينا باب الله، إذا طردنا الله فمن ملجؤنا؟ مَن معاذنا؟ مَن ملاذنا؟ فهذا هو الخوف الحقيقي، هذا الّذي لا بدّ أن نخاف منه ونسرّبه للطّفل بطريقة لائقة به.

نأتي إلى جملة: (لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ):

الآن تظهر بوضوح مفاهيم التّوحيد، بعد مفهوم الإسلام والاستسلام الّذي أتى في أوّل جملة في الحديث، وأتى بعده قلب الإسلام والاستسلام والتّوحيد الّذي هو: التّفويض. الآن أتى الكلام حول التّوحيد، يعني قُدِم للتّوحيد بـ: (رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ) فهذا حال عبد يعلم أنّ كلّ الخير الّذي يحتاجه عند الله. فإذا كان كلّ الخير الّذي يحتاجه عند ربّه فعليه أن لا يجعل قِبْلة قَلْبِه إلّا إلى ربّه؛ ولذا الطّفل بل والداه يمكن أن يعانوا دائمًا من التّشتت، أيّ أنّ كلّ حاجة يحتاجها لها أحد، فعندما يحتاج شيء يذهب إلى فلان، وعندما يحتاج الشّيء الثّاني يذهب إلى فلان. لكن التّوحيد ماذا يفعل للعبد؟ يَجْمَع على العبد قلبه ويلمّه عليه، بحيث أنّه في نهاية الأمر يكون لقَلْبِه قِبْلة واحدة، ثمّ الله يأتي له بكلّ شيء مِن كلّ طرف. وهذا ما أطيبه للإنسان، فأكثر شيء يؤذي الإنسان التّشتت: أنّه كلّما احتاج شيئًا ذهب إلى قِبْلة، ذهب إلى مكان، لكن هذا العبد يقول: (وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ) أيّ أنّ كلّ ما أرغبه عندك، وكلّ ما أخافه فأنت تحميني منه، كلّ ما أرغبه فأنت تعطيني، وكلّ ما أخافه فأنت منه تحميني. يعلم أنّ مصالحه كلّها في يد الله، ويزيد على ذلك أنّه يقول لربّه (لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ) يعني مع أنّ كلّ مصالحي عندك وكلّ مخاوفي لا يحميني منها إلّا أنت، في الأصل أنا لا مهرب لي منك (لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ) وهذا المعنى يحتاج لفهم أوّلًا مِن جهتنا ثمّ مِن جهة الصّغار.

حين يشعر العبد أنّ ربّه محيط به، أنّه لا يمكن أن يفوت الله، لا يمكن أن يهرب مِن الله إلّا إليه، فحتى إذا وقع في شيء لا يُرضي الله فليس له طريق إلّا أن يرجع إلى باب الله، وهذا المعنى يجعل الإنسان لا يطيل الطّريق على نفسه، يعني حين يستوحش بالذّنب والمعصية أو يستوحش بالبُعْد وعدم الذّكر ليس هناك حلّ كأن أذهب إلى أصدقائي فيوسّعوا عليّ صدري، أو أن أذهب إلى فلان وفلان فيُذهبوا عنّي كدري، إنّما تدور مهما تدور لن يزيل ما بك إلّا أن تلجأ إلى الله.

وهذا يجعلنا نتكلّم في شأنٍ مزعج جدًا لكن لا بدّ مِن الكلام عنه:

عدم وضوح (لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ) منذ الصّغر يُسبِّب أنّ بعض الشّباب يبحث عن مهرب ممّا يفكّر فيه، أو مهرب مِن الوساوس الّتي يعيشها، أو مهرب مِن الواقع الّذي لا يرضاه، أو مهرب مِن أيّ شيء، أو علاقة فشلت، أو زواج لم ينجح، أو تجربة لم يُوفّق فيها، فيهرب مِن هذا ليس إلى الله إنّما إلى المخدّرات، ويبذل جهده في هذا الوقت أن يُغيِّب عقله عن الواقع، وخصوصًا حين يأتي من يقنعه أنّ بعض المخدرات لا أثر لها طويل المدى، وأنّه لو استخدم نوع معين من المخدرات ليس شرطًا أن يكون مدمنًا بدنيًّا لكن يمكن أن يكون مدمنًا نفسيًّا، والمدمن النّفسيّ يعني أنّه يمكن أن يتّخذ قرارًا في أيّ وقت ويقلع عنها، ويقصدون بذلك الإدمان على الحشيش، وأنّ الحشيش إدمانه لا يسبّب لهم الإدمان البدني، أيّ أنّ بدنهم لن يطلبه، لكن يُسبّب لهم الإدمان النّفسي. وكأنّهم يغفلون عن أنّ هذه المخدّرات تدمّر العقل وتغيّبه، ويتصوّرون أنّها تُسبّب لهم الرّاحة من التّفكير في الواقع، وهم لا يعلمون أنّها مصدر لدخول جميع الوساوس لهم. وكثير ممن يُعرّض نفسه للانتحار أو يفكّر فيه، يكون قد سبق له أن استعمل جرعة أو مجموعة جلسات مِن هذا، ووصلت وساوسه إلى أن يشعر أنّ أحدًا وراؤه، أو أنّ أحدًا يتكلّم عليه، أو أنّ أحدًا يريد أن يغتاله، ويدخل في وساوس، ثمّ مِن أجل أن يريح نفسه مِن كلّ هذه الوساوس يُمكن أن يُدخِل نفسه في أيّ فكرة انتحاريّة، وهم قد لا تكون عندهم الشّجاعة لذلك لكن تخطر على بالهم هذه الأشياء، وكلّ هذا يُمكن أن يحصل بسبب غياب هذا المفهوم عنهم، أنّه (لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ) ليس هناك منجا وليس هناك ملجأ، لا مهرب، لا أحد يفوتك، إنْ هربت مِن نفسي وممّا فعلت ومِن أخطائي ومِن فشلي، إنْ هربت مِن هذا كلّه فسأهرب إليك، الفرار إليك {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ}[1] لا بدّ أن يفهم الصّغير -كما لا بدّ أن يفهم الكبير- أنّه مهما حصلت له حالات فشل فليس له مخرج إلّا إلى الله. وليُعلم أنّ وجود مثل هذا في مجتمعنا وفي بقيّة المجتمعات أمر يخيفنا من انتشاره؛ لأنّ هناك مؤشّرات تقول إنّه ينتشر، وخائفين من انتشاره بسبب ما نراه كلّ يوم على الحدود، وأنتم تسمعون أنّ كلّ مرّة على الحدود يجدون ويردّون عمليّات تهريب المخدرات، فنحن مُستهدفون.

(١) سورة الذّاريات: ٥٠.

لكن لماذا يمد له صاحبه ويَقْبَل؟ السّؤال: لماذا يَقْبَل؟ لماذا لا يخاف على عقله؟ لماذا لا يكون بالشّجاعة الكافية لأن يأخذ قرار الامتناع عن المخدرات؟ مهما كان أصحابه فيهم فسق أو فيهم عدم استقامة لماذا أنت تختار أن تفعل هذا؟ وقد يدفعهم بعيدًا عنه ولا يريد أن يكون مثلهم ويدفعهم إلى أن تأتي له أزمة ويشعر أنّه لا بدّ أن يهرب، فماذا يفعل مِن أجل أن يهرب؟ يستعمل شيئًا مِن هذه الأشياء، وهم يقنعونه. فهو يقرأ وهم يقرؤون أيضًا في الانترنت أنّ هذا لا يسبّب الإدمان! وطبعًا هذه كذبة؛ لأنّها إذا ما سبّبت الإدمان البدنيّ فقد سبّبت الإدمان النّفسي، والإدمان النّفسي معناه أنّه لا يتصوّر أن تستقرّ نفسيّته ومزاجه بدونه، ومن ثمّ لك أن تتصوّر –افتراضًا– أنّه إذا كان هناك مائة شخص وقعوا في الإرهاب فعلى أقل تقدير سبعين منهم كانوا مستعمِلين للمخدّرات قبل أن يدخلوا في الإرهاب، وإذا كان مائة شخص دخل في الإلحاد فعلى الأقل سبعين شخصًا استخدموا المخدّرات قبل أن يدخلوا في الإلحاد، وهذه المسألة تحتاج إلى إحصاء لكن أنا أتكلّم بالافتراض ممّا رأيته وسمعته، الشّاهد أنّ الحلّ أن يتعلّموا الإيمان، يتعلّموا عداوة الشّيطان، يعرفوا أنّه (لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ) ليخرجوا مِن الأزمة، ويحتاجون ذلك خصوصًا عند المراهقة؛ لأنّه أوّل ما يدخل الصّغير في مرحلة البلوغ، يبدأ الشّيطان بالوسوسة له، وانظر للصّغير كيف يبدأ يزيد في الوضوء، وتجد الصّغير حين يقترب من البلوغ يمكن أن يتأخّر في دورة المياه، تبدأ تحصل له أشياء نتيجة وسواس الشّيطان، فالشّيطان يعلّمهم ويوسوس لهم ويدخل لهم بمسائل تتّصل بالطّهارة، ويجرّهم إلى الخيالات الجنسية، وهكذا.

فإذا كان هناك والدان قريبان، يقولان: لا ملجأ ولا منجا مِن الله إلا إليه، يخرج ابنهم مِن الأزمة، ولن يحتاج أن يغيّب عقله، لكن إذا كان الوالدان غير موجودين، فسيختطف عقل المراهق أحد لأنّه لم يُؤسّس مِن البداية أنّه لا منجا ولا ملجأ من الله إلّا إليه، ولم يقل له: إنّك لن تخرج مِن همومك حين يتغيّب عقلك بالمخدّرات، لن تخرج مِن همومك بمجرّد أن يُغيّب عقلك، سيرجع عقلك حتمًا وكلّ الهموم الّتي كنت تتصوّر أنّها ذهبت منك ستجدها تجمّعت وصارت أضعاف. واعلمي أنّ مثل هذا لا يتركه الشّيطان، بل يصبح الوسواس عليه أكثر، وتصبح هناك قوة للوسواس، ويشعر طوال الوقت أنّه خائف، يشعر أنّ وراءه أحد يخطّط له، يشعر أنّ حوله أحد، وأنّ أهله أعداؤه فيقول: (أنتم تريدون أن تذهبوا بي إلى السّجن، أنتم تريدون أن تقتلوني)، ومِن هُنا كانت فكرة الإرهاب سهلة عليهم لأنّهم يشعرون أنّ مجتمعهم يريد أن يقتلهم، فيستديروا هم ويقتلوا مجتمعهم! وهناك أيضًا الوساوس الّذي يتكرّر عليهم: يشكّون في الله، وفي وجود الله، وفي صحة أحاديث النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– ثمّ يقرؤون ويقرؤون، وكثيرٌ منهم يصف نفسه أنّه قارئ جيّد، وهو لا يكون قارئًا جيّدًا، إنّما يكون بالضّبط دخل في وساوس، والشّياطين تساعده –شياطين الإنس والجنّ– على تغذية الشُّبه، فهو يوهم

نفسه أنّه يقرأ كثيرًا، ويكون كلّ ما يُدخله لعقله شُبه، ويكون في النّفس ضعف فلا تستطيع أن تستقبل الحق إلّا حين تتوقّف فترة عن استخدام هذا المخدّر، وبعد ذلك تستقرّ نفسيّاتهم، وبعد ذلك يُمكن أن يدخل إليهم الحق.

معنى ذلك أنّنا مِن البداية علينا أن نحافظ على عقيدتهم الصّحيحة وأنّه لا منجا ولا ملجأ من الله إلّا إليه، وأنّ حلّ المشاكل ليس بأن تهرب إلى المخدرات، ليس بأن تُسقط عقلك من الحسابات، ولا أن تغيّب نفسك من الحياة، ليس هذا الحلّ، إنّما الحل أن تهرب إلى الله، وخصوصًا حين يقتربون مِن البلوغ تصبح عندهم اضطرابات هرمونيّة، ويصبح عندهم ضيق، وكثير منهم يشعرون بهذا بل نشعر به نحن ونحن كبار، مثل حال المرأة الّتي تقترب منها الدّورة الشّهرية، هي نفس مشاعر البنت وهي قريبة من البلوغ، مثل مشاعر الشّاب الّذي يقترب من البلوغ، أشياء تحصل في بدنه وهو لا يعرف هذه التّغيرات وهذه الحاجات. وبالطّبع تعقُّد المجتمع وتعقُّد مسألة الزواج وتعقّد المستقبل واشتراطات طويلة عريضة تجعله يقول: أنا متى سأتزوّج، متى سأبني بيتًا؟! وفي النّهاية يؤْثِر أن يذهب بعقله بدلًا مِن أن يفكّر، يؤْثِر أن يذهب بعقله بدلًا مِن أن يكون مهمومًا، يؤْثِر أن يذهب بعقله بدلًا مِن أن تقطعه هذه التّخيّلات والتّصوّرات. وتجتمع في نفسه أمور لا تنفكّ، أحيانًا لا تستطيع أن تفكّها لأنّك لا تفهم ماذا يحصل في داخله، فمن أجل أن نوفّر على أنفسنا هذا كلّه: مِن اليوم، مِن ساعة ما نكلّمهم ونناقشهم نقول: اعلم أن لا ملجأ مِن الله إلّا إليه، ليس لك مهرب، لا تظنّ أنّك تفوت الله، لا تظنّ أنّك حين تغيّب عقلك ستصل إلى نتيجة، طبعًا لن نقول: (لا تغيّب عقلك) لهذا الصّغير ولا حتّى المراهق، إنّما سنكلّمهم دائمًا أنّه مهما ضاقت السّبل فما لنا إلّا أن نهرب إلى الله، ليس لنا إلّا أن نقف بين يدي الله. وعليكِ التّنبه عندما يأتي ابنكِ ويقول لكِ: (ادع لي لأنّي صاحب ذنوب). يجب عليكِ إفهامه أنَّ ذنوبه ليست مانعة له مِن الدّعاء، وقولي له: ادعُ أنت وذِل بين يدي الله، الدّعاء نفسه عبادة، ويقرّبك مِن الله، ناجِ الله أنت، فليسمع صوتك الله، لا تدري لعل الله أصابك بالضّيق ليسمع صوتك أنت لا مِن أجل أن يسمع صوت والديك، ونحن ندعو لك دائمًا، وإنّما يُزال الكرب بجمع القلب مِن صاحب الحاجة.

فالمقصود بكلّ المفاهيم أنّه في النّهاية لا بدّ أن يفهم هذا الصّغير أنّه ليس هناك مهرب إلّا إلى الله؛ لأنّ النّاس فتحوا لهم أبوابًا للمهارب، وخصوصًا مسألة المخدرات الخطيرة هذه، إلى ما وصلنا إلى ما يسمّونه "بالمخدرات الرّقمية" وحقيقة المخدرات الرّقمية غير واضحة وغير مفهومة، ظهرت في فترة وتوقّف الكلام عنها، بغضّ النّظر عن ذلك، نحن لا ندري ماذا يحمل المستقبل من أمور ومصائب وبلاءات علينا، لكن في نهاية كلّ الأمور لا بدّ أن تعرف أنّ الأدعية الموجودة في الشّرع تلمّ بكلّ الحياة، فإذا سِرْتَ عليه ستستقر الحياة في كلّ موطن، ومن ذلك أنّ هذا الصّغير لا بدّ أن يعرف أن لا

ملاذ ولا مهرب مِن أيّ شيء إلّا أن تفزع إلى الله -عزّ وجلّ- وما يفعله النّاس مِن هرب إلى غير الله: كأن يذهب للاستراحة مع أصحابه، وتكلّم هي صديقاتها بالسّاعات، وتذهب عند الجيران، هذا كلّه فقط هروب، وبعد هذا الهروب سيرجع الضّيق مرّة أخرى، ولن تجد سعة الصّدر بمجرد أن تقلّب صفحات الانترنت، ولا تجد سعة الصّدر بمجرد أن تلقى أصحابك الّذين يكلّمونك في الدّنيا، ولو جاءت سعة الصّدر فساعات، ثمّ تعود أضعافها مِن الكرب بعد ساعات قليلة! لا بدّ أن يفهم أنه ليس له ملجأ ولا منجا مِن الله إلّا إليه.

وحين نفكّر بهذه الطّريقة فكأنّنا نخطّط لهذا الصّغير البريء البعيد عن هذه الأشياء، أنّه كلّما احتجت تلجأ إلى ربّنا، هذا التّفويض والتوّكل، ثمّ حتى لو أخطأت ما لك إلّا الله، مهما أخطأت ما لك إلّا الله، مفزعك إلى الله، تعود مهما ابتعدت إلى باب الله، الله لا يردّ أحدًا عن بابه، الله لا يطرد المذنبين، ألا تسمع أنّه قال في كتابه: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}(١) ثمّ هؤلاء الذين فَتنوا المؤمنين والمؤمنات ماذا يقول الله -عزّ وجلّ- في حقهم؟ {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}(٢) أيّ أنّهم لو تابوا لتاب الله عليهم، بالرّغم من فعلهم! ما لهم إلّا الله، وما لنا إلّا الله، بل ليس للخلق كلّهم إلّا ربّهم الّذي خلقهم مهما كانوا مذنبين. بمعنى: لا يكون الوالدان نفسياتهم قانطة -فيهم قنوط- ويقولان طيلة الوقت له: (ربّنا سيعذّبك، ربّنا سيدخلك النّار). بل لا بدّ أن يرغّب هذا الصّغير إلى الله، ويرهّب من معصية الله، وتكون القُربة من الله غاية غاياته، تكون آماله الأخيرة وأمانيه: {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}(٣) ودائمًا يرغب في التّقرب ويخاف أن يبتعد. فعلينا أن نقول له: تقرّب من ربّنا وربّنا يذْكُرك في السّماء وإذا ذَكَرَك في السّماء وأحبّك، أحبّك أهل الأرض، وحملة العرش يستغفرون للّذين آمنوا، يقولون: {ربّنا وَسِعْتَ كلّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ}(٤) عندما تُقْبل على ربّك تكون لك مكانة، فتقرّب تُقرّب. نجعل القُربة تحقّق الأمنية: وهو أن يعيش في حياته في حالة من السّعادة الحقيقية والرّضا الحقيقي، ثمّ نرهّبه ونخوّفه مِن أن يبتعد مِن باب الله، نقول له: (لا تضيّع إيمانك، لا تذهب بحسناتك، لا تسوّد صحيفتك، لا تبتعد عن باب الله، تقرّب مِن الله، لا تبتعد عن الله). وإذا بَعِد نقول له بأنّ هذا الفعل يبعده عن الله، وبعد ذلك نقول: لكن ليس لك ملجأ إلّا الله، حتى لو ابتعدت فقط استغفر ستعود إلى باب الله، فِر مِن هذا إلى الله وليس إلى غير الله.

---

(١) سورة البروج: ٨.
(٢) سورة البروج: ١٠.
(٣) سورة آل عمران: ١٨٥.
(٤) سورة غافر: ٧.

فلا تكون نفسيّاتنا هذه النّفسيات المتشائمة الّتي إذا سقطت في الذّنب -سواء سقطت هي أو سقط أبناءها- تشعر أنّه أغلقت الأبواب، لم تُغلق الأبواب؟! هناك باب الله. وأنت مطيع ليس هناك إلّا باب الله، وأنت مذنب ليس هناك إلّا باب الله. إن تقرّبت قربك، وإن أعرضت عاملكَ بفضله عليك، تفضّلَ عليك، ومن فضْله عليك أنّه لا يعاجلك بالعقوبة -سبحانه وتعالى- مِن فضله عليك أن يربّيك وأن يذيقك طعم بُعدك، يجعل في قلبك وحشة مِن أجل أن تهرب إليه، فلا تجعل الوحشة الّتي تحصل سببًا لوحشة أكبر، إنّما اجعل الوحشة سببًا للعودة.

إذا كانت نفسيّات الوالدين سوية، وليس عندهم إرجاء وحالة من الميل إلى الرّغبة دون الرّهبة، ولا عندهم حالة من الرّهبة دون الرّغبة، أيّ أنّهم أسوياء نفسيًا، لا يائسين مِن روح الله ولا شاعرين بالأمن مِن مكر الله؛ سيُخرجون صغارًا أسوياء. لا يُيئّسونهم ولا طوال الوقت يؤمنونهم مِن مكر الله، إنّما بين هذا وهذا، يجعلون رضا الله غاية، ويعيشون طوال الوقت على اقترب {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} يقولون: تقترب أنت وربّنا يقترب منك، ولو اقتربت من الله تطيب حياتك وتصلح، ولو ابتعدت ليس لك طريق إلّا أن تعود.

يجرّ هذا التّوحيد الجملة الّتي بعده: (آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الّذي أَنْزَلْتَ وَبِنبيّك الّذي أَرْسَلْتَ):

وهنا إعلان للإيمان. أوّلًا: ما معنى الإيمان؟ معناه التّصديق، أي: عبد مصدّق، يصدّق بكتاب الله، يصدّق أنّ هذا الكتاب هو كلام الله وليس كلام الخلق، وإذا تكلّم به الله يصبح ما فيه كلّه حقّ يقين، فالّذي يقول: (آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الّذي أَنْزَلْتَ) معناه يقول: أنا صدّقت أنّ هذا الكلام كلامك، وإذا كان كلامك وليس كلام الخلق فمعناه أنّ كلّ ما فيه حقّ ويقين، فأوّل الأمر يصدّق أنّه كلام الله، وهذه المسألة كثيرًا ما نستهين بها نتيجة دخول الثّقافات، فكوْن القرآن كلام الله، وكوْن الله -عزّ وجلّ- مِن فضله ومنّته مكّنّنا مِن أن نقرأ كلامه -مِنّةً مِنْهُ- وهذه النّعمة وحدها تحتاج إلى شكر: أنّ الله تكلّم بالكلام، والخلق يستطيعون أن يُجْرُوا على ألسنتهم كلامًا الله تكلّم به، نعمة عظيمة أن يجري على لسانك كلامًا الله تكلّم به، فأوّل الأمر لا بدّ أن نعرف أنّ هذا الكلام ليس مثل الكلام، إنّما هذا كلام الله. صغيرنا لا يفهم عظمة هذا الكلام، لا يستطيع أن يأتي بأدلّة العظمة، لكن إذا كان الوالدان يعظّمون القرآن وطوال الوقت يقولون: هذا كلام الله، مشاعر الصّغير تجاه القرآن مباشرة ستصبح التّعظيم، وأنتم بالتّأكيد يمرّ عليكم هذا الموقف: صغير عمره ثلاث سنوات مثلا يبدأ يعرف الرّسم العثماني للقرآن، فإذا فتح أيّ كتاب ووجد نفس الرّسم، مباشرة يعرف أنّه قرآن، ويعرف أنّ هذا المرسوم مختلف عن بقية الكتب كلّها، وإذا تربّى على أنّه: لا تلقوه في الأرض، لا تهينوه، يصبح هذا الكتاب -رغم أنّه فيه شواهد

فقط من القرآن- لكن ممنوع أن تعاملوه معاملة خاطئة، لا بدّ أن تعاملوه مثل القرآن، ويبقى يقول بأنّ هذا قرآن، كوْنه فقط تصوّر صورة الرّسم العثماني.

لا بدّ أن نعرف نحن ما دورنا معهم، نحن نرسم مشاعرهم، نحن نصبّ مشاعرهم على الأشياء، فالّذي يكلّمهم عن القرآن لا يكلّمهم على حفظه فقط -إنّ الحفظ نعمة وخير كثير لكن يحفظون ما يعتقدون عظمته- أقصد قبل أن نتكلّم عن الحفظ لا بدّ أن نتكلّم عن الإيمان؛ ولذلك انظروا كيف كان حال الصّحابة وكيف كانوا غلمانًا حزاورة -قرب البلوغ- يقولون: (تعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن) يعني تعلّمنا تعظيم الله، وتعلّمنا تعظيم كلامه، وتعلّمنا توقير النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قبل أن نحفظ القرآن. وهناك كلام مؤسف لكن لا بدّ أن نواجهه، هذا يعلّل لنا لماذا هناك حفظة للقرآن ليس هناك أيّ أثر لحفظهم، لماذا حافظ للقرآن نُفاجَىء أنّه ممكن أن يتعدّى على الذّات الإلهية؟! الجواب في كلمة مختصرة: (تعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن) لا بدّ أن نتعلّم الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن، لا بدّ أن يعرفوا مَن هو الله العظيم وأنّ هذا كلامه وكيف مَنَّ علينا أنّنا نستطيع أن نقرأ كلامه. هذا الكلام عندما تكلّم به -سبحانه وتعالى- خرّت ملائكة السّماء كلّها مغشي عليها، وكان أول مَن أفاق جبريل، {حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} كان ينزل إلى كلّ سماء فتسأله الملائكة: {مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[1] إذًا كلام الله عندما تسمعه الملائكة يُغشى عليها، فأيّ قلوب هذه الّتي لا تجد أثرًا للقرآن! والسّبب الإيمان، التّصديق بأنّ هذا كلام الله.

عندما تسأل عن الخوارج -الّذين هم حقيقة الإرهاب اليوم- وَصَفَهم النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وصفًا دقيقًا: (تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ)[2] إلى هنا صورة مثاليّة، لكن بعدما قال لنا أنّهم يقرؤون القرآن، قال: (لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ) وفي رواية: (لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ) يعني إلى هنا فقط، مكان ما يخرج الصّوت فقط، أيّ ليس إلى قلوبهم؛ ولذا ابن عبّاس لما أرسله علي -رضي الله عنه- وعن الصّحابة جميعًا، للخوارج، وصل لهم في اللّيل، يقول في وصفهم: إنّهم في خيام، لهم دوي كدويّ النّحل من قراءة القرآن، ومع ذلك النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قال: (وَيَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ) ثمّ وصفهم فقال: (يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ) يعني كأنّه صيد، مثلًا أرنب في برّية وترمي بالسّهم فيدخل السّهم، وفي رواية أخرى: (يخرج السّهم) فينظر في ريشه وفي طرفه وفي العمود فلا يجد أثرًا للدّم، يعني كأنّه السّهم ما دخل الرّمية، ما دخل الصّيد، كأنّه ما دخل الإسلام، ما دخل الدّين، لا

(١) سورة سبأ: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٨).

يبقى أيّ أثر للدّين فيه. فالصّحيح الإيمان بأنّ هذا كتاب الله قبل الحفظ، وهذا دور المربّين. فنقول طوال الوقت: هذا كلام الله وليس كلام غيره.

وهناك فرق بين التّقصير في التّعامل مع كلام الله وفرق بين أن أقصّر في مشاعر تعظيم كلام الله، مثلًا قد لا تحفظ، وتكون قليلًا في قراءة القرآن، ولا تفهم شيئًا كثيرًا من القرآن، لكن تشعر كلّما رأيت القرآن بأنّه عظيم، فهذا له أجر غير أجور القراءة وغير أجور الفهم وغير أجور الحفظ، فلا تخسره كلّه مرة واحدة. ثمّ الّذي نريد أن ننقله لصغارنا: بأنّ هذا الكلام ليس مثل الكلام، هذا كلام الله العظيم، وحين يقول الله؛ إذًا حَكَمَ الله، انتهى الأمر. فإذا قال الله وقال الرّسول انتهى الأمر؛ ولذلك كثيرًا ما تحصل مناقشات بيننا وبينهم أو يتناقش الصّغار مع بعضهم البعض، ولو كان القرآن عظيمًا فأوّل ما أقول لهم الدّليل يتوقّفون عنده، مثلًا مراهقات يجلسن مع بعضهنّ البعض ويقلن: (أصبح النّاس يسيئون لنا لأنّنا طيبون جدًّا، وكلّما أحسنّا لهم أساؤوا لنا). وطبعًا هذه من الأفكار الضّالّة المنتشرة، فتدخلي معهم في هذا النّقاش – وأنتِ أمّهم– ، فيقولون لكِ: (والله نحن جربّناهم، والله رأيناهم، والله النّاس ليس فيهم خير). فتُنهي النّقاش بكلمة واحدة: اسمعوا ماذا قال ربّنا: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ}[١] ليس عندي نقاش كثير. فلو كان القرآن عظيمًا عندهم سيكون حَكَمًا على الموقف، لكن لو ما كان القرآن عظيمًا فسيقولون: (هذا في عصر غير عصرنا) وتبدأ إساءة الأدب مع القرآن. ليس هناك شخص يقول: آمنت بكتابك، إلّا إذا اعتقد أنّ هذا كلام الله العظيم، وهو المنهج القويم الّذي لو سرنا عليه وصلنا سالمين، لا بدّ أن نعتقد أنّ هذا المنهج القويم، فالتّقصير في حقّه شأن آخر يختلف عن أن تفقد مشاعر أنّه المنهج القويم.

المؤمن يعْلم أنّ هذا كلام الله، ويعْلم أنّه المنهج القويم الّذي إذا سِرْنا عليه وصلنا سالمين، ثمّ ماذا يفعل بعد ذلك؟ يبذل جهوده ويدعو ربّه أن يكون القرآن ربيع قلبه، ويأخذ بأسباب ذلك، لكن لا نقصّر في البداية، فنحن دورنا الأول مع أبنائنا أن يعظّموا هذا الكلام، لا يتساوى كلام الله بكلام غيره، انظر إلى تربية آبائنا الّذين لم يسمعوا هذا الخلْط وتربّوا على الفطر السّوية وعلى ما يعرفون مِن كلام الله، انظر لهم وانظر لنتائجهم، وانظر للمثقّفين أصحاب النّظريات، وانظر الفارق في النّاتج، وهذه مؤشّرات كافية لتعرف الباطل.

والعبد حين يُسأل في قبره: مَن ربك وما دينك ومَن نبيّك؟ فيُوفّق ويجيب، تقول له الملائكة: ما صنعت؟ يعني ما صنعت في حياتك من أجل أن تصل إلى هذا الثّبات؟ فيقول: (قرأتُ كتابَ اللَّهِ فآمنتُ بِهِ وصدَّقت)[٢] وهذه قضيّتنا، قضيّتنا

(١) سورة الإسراء: ٧.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٩).

كتاب الله، لا تشغل نفسك بغيره ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، والمسألة ليست سباق مَن يحفظ أسبق ومَن ينتهي، ليست سباق، إنّما الّذي تفْهمه خير وبركة، الّذي تفْهمه أنت تحتاجه، لو فهِمت سورة من القرآن مثل سورة العصر وفهمتها فهمًا حقيقيًا لكفتك، لاستقامت حياتك، ستجد نفسك لا تضيّع وقتك أبدا، ستجد نفسك تبحث عن الإيمان وحقائقه، ستجد نفسك تعمل العمل الصّالح، تقول: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ}[١] ثمّ تعرف أنّه يجب أن تتواصى بالحق، فتبدأ بأبنائك، وتتواصى بالصّبر، وتعرف أنّ الإيمان يحتاج إلى صبر، والعمل الصّالح يحتاج إلى صبر، والدّعوة إلى ذلك تحتاج إلى صبر، وتستقيم كلّ الحياة، فالمقصود نحن لسنا في سباق، إنّما الإيمان هو الّذي نحتاجه.

نستفيد أيضًا مِن جملة: (آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الّذي أَنْزَلْتَ) الإشارة إلى علوّه سبحانه وتعالى. (أَنْزَلْتَ): الكتاب نزل، أيّ أنّ ربّنا في السّماء، وهذه العقيدة لا تعْلَمون إلى أيّ درجة هي مهمّة، لدرجة أنّها كانت اختبار الجارية الصّغيرة، كان هناك أنصاريًا كانت له جارية ترعى له، وتركت شاة فأكلها الذّئب، فعاقبها، فشعر بأنّه أذنب في حقّها، فأتاها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فسألها: (أَيْنَ اللَّهُ) انظر إلى الفطرة السّوية، أشارت أنّه في السّماء، فقال لها: (مَن أنا) قالت: رسول الله، قال: (أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)[٢] فهذان الأمران يساويان الإيمان، يعني (أعتقها فإنّها مؤمنة) بناء على أنّها قالت إنّ ربّنا في السّماء، وأنّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

نعود لنسأل أنفسنا: كم مرّة تناقشنا مع أبنائنا أنّ ربّنا في السّماء؟ الجواب: غالبًا أنّهم يعرفون أنّ ربّنا في السّماء! مِن أين سيعرفون أنّ ربّنا في السّماء؟ بفطرتهم. لكن فطرتهم هذه قد تدخل عليها مائة ألف فكرة، خصوصًا مع ما يحيط بنا من نتائج الثّقافات -وهذا تحذير مهم لا بدّ أن ننتبه له- نحن اليوم لسنا مثل عشر سنوات سابقة، إنّما اليوم يوجد أصحاب العقائد المخالفة مِن المسلمين الّذين يُنكرون أنّ ربّنا في السّماء، والّذين يقولون إنّ ربّنا في كلّ مكان، وحين تقول لهم: نعم، ربّنا معنا في كلّ مكان بعلمه، يقولون: لا، لا نقصد هذا، إنّما بذاته في كلّ مكان. هذا الكلام الّذي نستنكره ولم نكن نسمعه، الآن هم يسمعونه، يفتحون أيّ موقع ويقرؤون أو ينظرون لأي فيلم ويسمعون هذا الكلام، فعقيدتنا لا بدّ أن تكون واضحة خصوصًا أنّ نصوصها واضحة، ويكفي في ذلك التّصريح والإشارات، ففي القرآن مواطن كثيرة تدلّك بالتّصريح أنّ ربّنا في السّماء، وأيضًا بالإشارة مثل هذا الموطن (آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الّذي أَنْزَلْتَ) مِن أين ينزل؟ مِن العلو

(١) سورة العصر

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٨٤).

بالتأكيد، فالله في السّماء، وإذا كان الله في السّماء سيكون هو قِبْلة قلبي، وتصوّر شخصًا لا يعرف أنّ الله في السّماء، فأين سيتّجه قلْبُه وقتما يحتاج؟! لكن بفطرته سيتجّه للعلو، بل مَن رأى وعرف الحيوانات -الإناث من الدّواب- عندما تلد ترفع بصرها إلى السّماء، إشارة إلى أنّها تستغيث بالله، وكلّ صاحب فطرة سويّة يعرف أنّ العظماء يكونون في العلو بالتأكيد، وأدلّة ذلك كثيرة جدًا.

المقصد مِن هذا النّقاش أنّه لا بدّ أن نقرّر هذا تقريرا، لا بدّ أن نقول لأولادنا بوضوح أنّ ربّنا في السّماء، وقلبك هذا لا بدّ أن يكون عند ربّنا، متعلّق به يشير إليه؛ لأنّه يرفع يديه رفع مَن ينتظر أن يوضع في يديه خيرًا، والله في السّماء ينزل عليه الخيرات، وهو -سبحانه وتعالى- كما في الحديث لا يرد يديّ الدّاعي صفرًا، يعني عبد يمدّ يده يستغيث، ينتظر أن ينزل عليه مِن السّماء، فالله في السّماء وأرزاقه في السّماء ومِن السّماء تنزل الأرزاق وهو -سبحانه وتعالى- في العلو ينزل إلى السّماء الدّنيا في الثّلث الأخير من اللّيل، وينزل في عشيّة عرفة على أهل عرفة، فهذه كلّها أدلّة كثيرة أكثر ممّا تُعد، والشّاهد أنّه بسبب استقرارها في أنفسنا -الحمد لله- نشعر أنّها لا بدّ أن تكون مستقرّة في نفوس أولادنا، والحقيقة أنّه ليس شرطًا، إنّما قد تأتيهم لوثة من هنا وهنا فتشوّشهم، وقبل أن تضع في قلوبهم الحقّ تفاجأ أنّهم أتوا لك بالباطل، فلا بدّ أن نسبق بتقرير هذا.

(آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الّذي أَنْزَلْتَ وَبِنبيّك الّذي أَرْسَلْتَ) أي: كما آمنت بكتابك الّذي أنزلت، كذلك آمنت بنبيّك الّذي أرسلت، ومعناه أنّ المؤمن يعتقد أنّ الله أرسل الرّسول، وأنّه رسول يبلّغ الرّسالة، فكلام الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- مِن أين؟ هو مأمور، يبلّغ ما أمره الله، أيّ أنّ كلّ ما قاله النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- إنّما هو بأمر الله، فكلمة "رسول" لا بدّ أن تأخذ حقّها في النّقاش. (وَبِنبيّك الّذي أَرْسَلْتَ) أيّ أنّ الله نبّأه، أصبح يأتيه النّبأ، وهذا النّبأ العظيم الّذي يأتيه: توحيد الله واستحقاقه للعبادة وأنّنا سنلقى ربّنا، النّبأ: الخبر الّذي أتاه، أتاه عن طريق جبريل، وأنّه -صلّى الله عليه وسلّم- نُبئ بنبأ عظيم، يعني أتاه نبأ عظيم، ونبقى نقول للصغير: ليس مِن عند النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّ كثير ممّا يحيط بنا اليوم مِن الإشكالات اعتقاد أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أحد العباقرة، اعتقاد أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أحد الأذكياء، اعتقاد أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أحد الشّخصيات المهمّة تاريخيًا، كأنّه اخترع الوحي! هذا ذمّ لكنّه لبس لباس المدح، يريدون أن يقلّلوا مِن قيمة نبوّته فيضعوه أحد عظماء التّاريخ، فيقولوا لك: (العظماء مائة وأعظمهم محمد) هذه أحد الكتب الّتي كانت منتشرة من سنين قديمة، وكأنّهم يمدحونه، وهم في الحقيقة يقلّلون مِن قيمة النّبوة. لا بدّ أن يعرف هؤلاء الصّغار أنّ الله اختاره واصطفاه، فنُبّئ بالنّبأ ثمّ أُرسِل بالرّسالة، فالّذي مع الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- رسالة.

الآن نحن نعرف الرّسائل وصغيرنا يعرف الرّسالة، فكلمة "رسالة" ليست بغريبة لا عليه ولا علينا. إذًا ما الرّسالة؟ من المؤكّد أنّ في الرّسالة شيء مهم. الرّسول بلّغها وأنت ماذا تفعل تجاه الرّسالة؟ تهتمّ بها وتقرؤها وتفعل ما أتى بها، خصوصًا لو أنّ هذه الرّسالة أتت مِن الله، فمشاعر "رسالة" هذه مشاعر موجودة عندنا. نفترض أنّ أحبابك يرسلون لك رسالة، وليست رسالة تقليديّة إنّما رسالة فيها أخبار. ماذا تفعل بها؟ تقرؤها قراءة أوّلية، ثمّ قراءة تفصيليّة، ثمّ تأخذ أجزاءها وتقرأها، وتنفعل معها. فالرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- أتى برسالة، والرّسالة موجودة في القرآن، كم قدر العناية بهذه الرّسالة وكم قدر امتثالها؟! مقصدي أنّ يستوعب الصّغير هذه الرّسالة، وأنّ هذه الكلمة يمكن استعمالها وإعادتها، والرّسول أتى بالرّسالة، والمطلوب أن تقرأ الرّسالة وتفهم الرّسالة، ثمّ ستحاسب على الرّسالة وتُسأل عن هذه الرّسالة، ونبقى يومنا كلّه نتكلّم عن هذه الرّسالة.

في هذه الجملة كما مَرّ معنا ظَهَر لنا استذكار البراء. في آخر الحديث قال:

(فَرَدَّدْتُهُنَّ لِأَسْتَذْكِرَهُنَّ، فَقُلْتُ: آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الّذي أَرْسَلْتَ. قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِنبيّك الّذي أَرْسَلْتَ):

فبدلًا من أن يقول: (ونبيّك الّذي أرسلت) قال: (ورسولك) في رواية البخاري قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: (لا) نفيًا على رسولك الّذي أرسلت، وقال: (ونبيّك الّذي أَرْسَلْتَ) وهذه إشارة إلى خطر الابتداع. لا بدّ أن نسير على سنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- واليوم — هناك مَثَل مناسب لنا- ابتدع النّاس مع السّنة الهجرية بدعًا، وأحيانًا هذه البدع نتوهمها أنها قُربة، مثل الصّيام. دارت بين النّاس بعض الرّسائل أن نصوم آخر يوم في السّنة وأوّل يوم في السّنة على أنّنا نختم ونفتح صحيفتنا، وهذا مبنيّ على تصوّرنا أنّ صحائفنا سنويّة! ومَن قال لك إن صحائفنا سنويّة؟ أوّل ما تبدأ صحيفتك بالكتابة -مِن عند البلوغ- لا تطوى إلّا حين تموت، فليست سنويّة. مِن أين هذا الاختراع؟ بدعة فوق بدعة، وتفكير أتى مِن القياسات، ثمّ في النّهاية نقول: نحن نتقرّب لربّنا بالصّيام. نقول: صُم لكن لا تقصد هذا. بالأمس كان آخر يوم في السّنة الهجريّة، واليوم أوّل يوم، أمس كان الثّلاثاء واليوم الأربعاء، فلا هو يوم الاثنين ولا الخميس، وبالطّبع ليس مِن الأيام البيض، فمِن ثمّ هذا اسمه بدعة حتى لو أتى بصورة قُربة.

ماذا تقول في كلمة (رسولك الّذي أرسلت)؟ هل كلمة "رسولك" خطأ؟ لا، ليست خطأ، إنّما لمّا وضع كلمة "رسولك" مكان "نبيّك" قال له النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (لا، ونبيّك الّذي أَرْسَلْتَ) فلا تأتِ تقول بأن هذه تحلّ مكان هذه، وهذه عبادة وليس فيها شيء! ليس فيها شيء عندما تكون أنت الّذي تشرّع لنفسك تشريعًا، لكن حين تكون طائعًا.

انظر للبراء رضي الله عنه لم يقل له: (يا رسول الله "رسولك" مثل "نبيّك"). بل نقل لنا أنّه أخطأ وأنّ النّبيّ ردّه، مِن أجل أن نتصوّر أنّ هذا المنهج دقيق جدًا. أنتَ ستبقى تقول: ما الفرق بين "رسولك" و "نبيّك"؟ لأهل العلم كلام كثير في ذلك، لكن أهم كلمة نقولها: امتثل ما أُمِرت، أنت هنا عبد تسمع وتطيع، ألا تقرأ في أواخر سورة البقرة أنّ القوم الّذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله قالوا: سمعنا وأطعنا، فسمعنا وأطعنا هذه ما أطيبها عند المؤمن، خصوصًا وهو يعرف مَن ربّه ومَن نبيّه، وكيف أنّ الله العظيم أكمل لنا الدّين وأتمّ علينا النّعمة ورضي لنا الإسلام دينًا، فكيف لا نرضى بما رضيه الله؟ لا تقترح، إنّما الاقتراح على النّاقصين، لا تقترح، إنّما الاقتراح للتّكميل، لا تقترح فأنت عبد ضعيف، مطلوب منك أن تتقرّب إلى الله بامتثال أمر الله.

المقصد أنّ العقول لا تتدخّل في الشّريعة، وأنّ هذا الصّغير حين نربّيه لا نأتِ نقول له: (هناك مصالح مِن أجل أن تصوم، مصالح مِن أجل أن تصلّي). بل مصالحك الّتي ستعود عليك هي مصلحة أن تطيع، والطّائع هذا تنزل عليه بركات لا يستطيع أحد أبدًا أن يقيسها. بل إنّ لكلام النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بركة في انشراح الصّدر لا تساويها بركة، يعني حين تقرأ كلام الله وتفهمه تنزل عليك بركات وينشرح صدرك وأنت لا تعرف سرّ الانشراح، وحين تقرأ كلام النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وتفهمه تنزل عليك بركات وينشرح صدرك وأنت لا تعرف سبب الانشراح؛ لأنّ العبد الّذي يعظّم الله يعرف أنّ لكلام الله ولكلام رسوله آثار، حتى لو لم تعرف أسرارها، فيعرف أنّ لها بركات وأنّه يصل إلى طاعة الله حين يقول: سمعنا وأطعنا.

أبناؤنا أمانة في أيدينا، علينا أن نمتثل أمر الله في تربيتهم، علينا أن نجعل النّصوص بين أعيننا، علينا أن نضرب صفحًا عن أهل الشّرق والغرب في تربيتهم ونظريّاتهم، علينا أن نهتمّ بفهم كلام الله وكلام رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- فهمًا عميقًا إلى أن نصل إلى نتائج تنفع في التّربية، وعلينا أن ندعو الله -عزّ وجلّ- دائمًا أن يحفظهم وأن يكونوا في رعايته وأن يردّنا ويردّهم إليه ردًّا جميلًا، اللّهم آمين.

سبحانك اللّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفهرس

اللّقاء الأوّل ٣

اللّقاء الثّاني ٢٨

اللّقاء الثّالث ٥٥